الدكتور شوقي أبو خليل

تسامح الإسلام

وتعصب خصومه

منشورات
كلية الدعوة الإسلامية

تسامح الإسلام

وتعصب خصومه

الطبعة الثالثة
1428 ميلادية

الناشر
كليّة الدّعوة الإسلاميّة
طرابلس - الجماهيريّة العظمى

مدخل

حوار مع مستشرقة

في الشَّهر السَّادس من سنة 1989 م، اتَّصل بي زميل لي، يعمل موجِّهاً أوَّلاً لمادَّة التَّاريخ، وسألني: أريد أن آخذ من وقتك ساعة أو ساعتَيْن، فمتى تستقبلني؟

قلت لزميلي مجيباً: متَى شئت في أُمسية الغد.

قال: سأُحضر مستشرقة فرنسيَّة حدَّثتها اليوم عنك.

قلت: أهلاً وسهلاً بكما، ولكن ما الموضوع الَّذي سيُطْرَح، كي أحتاط له؟

قال: قرأت هذه المستشرقة كتاباً لڤيكتور هوغو، عنوانه: "أساطير القرون"، وهو يضُمّ عشرات القصائد، والَّتي منها قصائد تحت عنوان: محمَّد – صلى اللّه عليه وسلَّم– والأرز[1]، ادّعى ڤيكتور هوغو في القصيدة الأخيرة، أن عمر بن الخطَّاب رضي اللَّه عنه، والَّذي لقَّبه هوغو «شيخ الإسلام»،

---

(1) – الأَرْزَةُ : شجرة الصَّنوبر، والجمع أَرْزٌ، [اللِّسان: أرز]، وهو شجر معروف في بلاد الشام تشتهر به لبنان خاصَّة، حتَّى جُعِلَ شعاراً لها على علَمِها.

وشبَّهه بالقِّديس بولص[1]، هدم أَربعة آلاف كنيسة خلال عمليَّات الفتح في بلاد الشَّام، وبنى من بقايا أحجارها وحطامها ألفاً وأربع مئة مسجداً.

قلت لزميلي: أهلاً وسهلاً -ثانية- بكما، أنا بانتظاركما.

انتهت المكالمة الهاتفيَّة، بعد تحديد ساعة اللِّقاء، فرحت أُفكرٍّ مليّاً، وأتساءل : هل يستَحِق كلام ڤيكتور هوغو هذا، عناء السَّفر إلى سوريَّة ؟

وأيٍّ بناء جديد سينشئه الاستشراق معتمداً على ادِّعاءات هـوغـو ؟

وقلت في نفسي أيضاً : أَلَمْ نسمع صيحات تقول بنهاية عصر الاستشراق ؟

أَلَمْ يعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين سنة 1975، أنَّ المؤتمر القادم سيعقد باسم «مؤتمر العلوم الإنسانيَّة»؟ وقالوا: لقد خُتِمَت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر سنة /1830/، و امتـدَّت علـى مـدى مئـة وخمسـين عامـاً،

(1) – بولص : اسمه الأوَّل شاول، يقال تنصر على طريق دمشق، وبدأ التَّبشير في مدن آسية الصُّغرى، قطع رأسه في روما سنة 67، يلقبونه «رسول الأمم».

وقالت " اللّيموند " الفرنسيّة : إنّ هذا التّحوّل يُعَدُّ «موت الاستشراق» وقال جاك بيرك: «انتهى زمن الاستشراق»، في الوقت الّذي كرم العدوّ الصّهيوني في الأرض المحتلّة المستشرق برنارد لويس، الّذي هاجم الأمّة العربيّة ووصفها بالعنصريّة !! وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصّهيوني قوامه رودنسون وبرنارد لويس، يركّز كلّ اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود ... أليس هذا كله يجعلنا في حذر دائم ممّا يكتبه المستشرقون، وما يُكْتَبُ عنهم، ونحن إزاء تحوّل الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانيّة، نحسُّ بأنّ الخطر أصبح أشدّ قوّةً وعمقاً، وأنّ الاستشراق يغيّر جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكثر خطراً [1] ؟.

سيبقى الإسلام هاجسهم اليوم وغداً، إنّه العقيدة البديلة للفراغ الرّوحي الّذي يعيشونه، بعد أن نبذت العقول جانباً الأسرار والخرافات والإله المصلوب، الّذي لم يحمِ نفسَه وقتلها صلباً ليفتدي خطايا البشر، وهو الّذي يملك العفو - إن كان إلهاً - دون صلب أو فداء.

---

(1) - «الهلال» : عدد كانون الثاني (يناير)، أي النار 1976، صفحة: 67 التراث الإسلامي والمستشرقون" للأستاذ أنور الجندي.

مَرَّت عشرات الأفكار في خاطري، كان آخرها: أما آن لنا -نحن المسلمين- أن نترك موقف الدِّفاع الَّذي نقفه لرد شبهات الاستشراق وافتراءاته، ونقف موقف الطارح في ساحِ البحث عيوبهم ومخازيهم ؟

حبّاً للحقيقة من ناحية.

وإشغالاً لهم بترقيع ماعندهم وترميمه من ناحية ثانية.

وإفهاماً لهم أنَّنا نعلم ماعندهم من عقائد وأفكار بالية من ناحية ثالثة، عقائد لن تتلاءم مع حقائق العلم الحديث، مهما حرصوا على الموارية في تفسيرها، وهذه هي أُوربة تتخلَّى عن دينها إلى العلمانيَّة، والكنائس تباع في المزادات، ومع ذلك التَّبشير قائم خارجها على قدم وساق، في إفريقية، وجنوب شرقي آسية !؟!

* * *

وفي الموعد المحدَّد، زارني الزَّميل ومعه المستشرقة الفرنسيَّة، وبعد كلمات مقتضبة جدّاً في المجاملة والتَّرحيب، دخلنا صلبَ الموضوع، وراحت المستشرقة بعربيَّة فصيحة تقرر: إنَّ عمر بن الخطَّاب «شيخ الإسلام»، و «بولص المسلمين» أمر -أثناء فترة خلافته- بهدم أربعة آلاف كنيسة، وبنى ألفاً وأربع مئة مسجدٍ، فأين تسامح الإسلام ؟

قلت على التّوّ مجيباً: وما مصدر هذه المعلومات التّاريخيّة، الّتي لم أقرأ عنها من قبل؟ وأنا -كما هو معروف معلوم- مختصٌ في تاريخ صدر الإسلام، وأُحاضر به في جامعة دمشق؟

قالت: مصدرها كتاب «أساطير القرون» لڤيكتور هوغو في قصيدة الأرْز.

قلت: ڤيكتور هوغو، شاعر وكاتب فرنسي، ولد سنة 1802، وتوفي سنة 1885م، امتازت مؤلفاتُه بقوة المخيِّلة، وتنوُّع الألفاظ، وغنى الوصف، ولكنه ليس باحثاً موثوقاً، ولا مؤرخاً معاصراً لعهد الفتوحات العربيّة الإسلاميّة، الّتي تمّت في النِّصف الأول من القرْن السَّابع الميلادي.

قالت: طبعاً، هذا صحيح.

قلت: شاعر امتاز «بقوة المخيِّلة، وتنوُّع الألفاظ، وغنى الوصف»، وليس باحثاً مدقِّقاً، أو مؤرِّخاً موثوقاً ... كيف تعتمدين أقواله وطروحاته؟ فساد صمتٌ، مع نظرات استغراب، فخرقَتْ جدار الصمت بكلماتٍ متقطِّعة، قائلة:

إنَّها موضوع رسالتي ... أُطـروحتي ... لنيل درجـة الدكتوراه.

قلت: إنَّكِ تجيدين العربيَّة نطقاً، ولعلها كتابة وقراءة أيضاً

قالت: بالطَّبع، أنا أقرأ العربيَّة وأكتبها بشكل ممتاز.

قلت: فلم لم تعودي إلى المصادر العربيَّة، لدراسة هذه الفترة الَّتي عاشها عمر بن الخطَّاب، ولتنهلي من معينها، بدل العودة إلى ڤيكتور هوغو الَّذي عاش بعد عمر بأكثر من اثني عشر قرناً ؟

قالت: ولكنه ڤيكتور هوغو ؟!!

قلت: نعم، إنَّه هوغو الشَّاعر الفرنسي الكبير، والكاتب القصصي العظيم فقط ليس إلاّ، أمَّا هوغو المؤرِّخ، وهوغو الباحث فلا .

ودار حديث على مدى ساعتين وأكثر، تكلَّمت خلالهما وهي تسمع وتكتب، وتتناول كتاباً من يدي، وتدع آخر، لتكتب عنوانه، واسم مؤلَّفه، وطبعته وسنتها ... ومما قلته لها:

أستمعت بما يعرف في علم النَّفس «بالإِسقاط»، الَّذي هو بمعناه الأصلي يعني ميل الفرد إلى أن ينسب عيوبَهُ وأخطاءه ورغباته المستكرهة المكبوتة إلى غيره من النَّاس والأشياء ؟

فالبخيل لايفطن إلى أنَّه بخيل وينسب البخل إلى غيره.

وكذلك الأناني والكذَّاب والمغرور والكسول ....

قالت: وما علاقة «الإسقاط» مع ما قاله ڤيكتور هوغو ؟

قلت: هناك مثل عربي عظيم يقول: «رمتني بدائها وانسلّت»، اسمعي:

أولاً:

منذ الفترة المكّيّة - قبل الهجرة النّبويّة الشّريفة - كان شعور المسلم مع أخيه المسيحي، لأنّه من أهل الكتاب، وسُجّل ذلك في القرآن الكريم:

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(الرّوم 30/2-5)

انتصر الفُرْسُ على الرّوم، ففرح مشركو مكّة بذلك، وأظهروا شماتتهم بالمسلمين الّذين كانوا يقولون بوحدة المنبع والجوهر، الّتي تجمع بينهم وبين الكتابيين الّذين منهم الرّوم النّصارى، وإن هذا الموقف شقّ على المسلمين وأحزنهم، فبشّرهم الله سبحانه وتعالى بهذه الآيات وطمأنهم.

حتى إن هناك روايات عديدة، في صيغ مختلفة عن تَشَادٍ بين المسلمين والكُفَّار، ومراهنة بينهم على صدق مابشَّرت الآيات من غلبة الرُّوم بعد انغلابهم، منها ماكان بين أبي بكر الصِّدِّيق، وأُميَّة بن خلف[1].

ثانياً:

معاهدات النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وسلَّم في الفترة المدنيَّة، سأذكر مقتطفات منها، لتلمسي تسامح الإِسلام مع أتباع الدِّيانَتيْن اليهوديَّة والمسيحيَّة:

ففي المدينة المنوَّرة وادع صلى اللَّه عليه وسلَّم عربها الَّذين تَهَوَّدوا وعاهدهم[2]، وكفل لهم التَّمتع بما للمسلمين من حقوق ماوفَّوا، وبَعُدوا عن خبث الطَّويَّة، والغدر والخيانة.

وكان صلى اللَّه عليه وسلَّم محقّاً كل الحقِّ في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد غزوة بدر الكبرى لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم، فمن أقوالهم: «يا محمَّد لايغرنَّك أنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصَبْتَ منهم فرصة»، يقول ابن الأثير: فكانوا أوَّل يهود نقضوا مابينهم وبينه[3].

---

(1) - التَّفسير الحديث، محمَّد عزَّة دروزة: 6 / 284.

(2) - ابن هشام: 2 / 106 و107 و108.

(3) - الكامل في التَّاريخ: 2 / 96، عيون الأثر: 1 / 295.

والنَّبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم مُحِقٌّ كل الحقِّ في إجلاء يهود بني النَّضير بعد غزوة أُحُد[1]، لأنَّهم تآمروا مع قريش ضد المسلمين .

والنَّبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم مُحِقٌّ كل الحقِّ في حكمه على بني قريظة بعد غزوة الأحزاب «الخندق[2]» لنكثهم عهودهم معه، وهو في أشدِّ ساعات الحَرَج، بعد أن ساعدوا قريشاً وحرَّضوها ضد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم.

ومع ذلك كان الرَّسول الكريم يرفق باليهود إذا نقضوا عهده، أو حاربهم فانتصرَ عليهم، فكان لايعاقبهم إلاَّ بمقدار مايكف أيديهم عنه، وكان يحكِّم فيهم من يختارونه بأنفسهم[3].

وفي غزوة خَيْبَر[4]، وجد المسلمون صحائف متعدِّدة من التَّوراة، فجاء اليهود يطلبونها، فأمر صلى اللَّه عليه وسلَّم بدفعها إليهم، وهذا التَّسامح سبقه تسامح آخر عندما ترك صحائف اليهود، ولم يتعرَّض لها بسوء، مع شدَّة عداوة اليهود للمسلمين،

---

(1) - كانون الثاني (يناير)، أي النار 625م

(2) - شباط (فبراير)، النوَّار 627م

(3) - تاريخ الإسلام: 1/ 132.

(4) - آب (أغسطس)، مانييال 628م.

فقد سمح لبني النَّضير بعد غزوة أُحُد، بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنوَّرة، مماجعل «ولفنسون» يقول:

«لم يتعرَّض - النَّبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم - بسوء لصحفهم المقدَّسة، ويذكرون إزاء ذلك مافعله الرُّومان حيث تغلَّبوا على أُورشليم وفتحوها سنة 70م، إذ أحرقوا الكتب المقدَّسة، وداسوها بأَرجلهم، ومافعله المتعصِّبون من النَّصارى في حروب اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التَّوراة، هذا هو البَوْن الشَّاسع بين الفاتحين ممَّن ذكرناهم، وبين رسول الإسلام[1]».

والتَّاريخ خير شاهد لوفاء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم لعهوده، حتَّى دفع ديات من قُتِلَ منهم خطأ، وعفوه عن كلِّ معتدٍ مسيءٍ منهم جاءه تائباً، وأنَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم كان يُشَيِّع جنازاتهم، ويحضر ولائمهم، ويعود مرضاهم، ويقترض منهم حتَّى توفي صلى اللَّه عليه وسلَّم ودرعه مرهونة عند بعض اليهود في المدينة، وكان صلى اللَّه عليه وسلَّم يفعل ذلك إرشاداً وتعليماً للمسلمين، مع أنَّه كان في الصَّحابة من يقرض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم، بل ويؤثره على نفسه.

---

(1) - تاريخ اليهود ببلاد العرب، ص: 170.

ثالثاً:

وأبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وقف يوصي جيش أُسامة بن زيد قائلاً:

«يا أيُّها النَّاس، قفوا أُوصيكم بعشر، فاحفظوها عنِّي:

1 – لاتَخُونُوا ولا تُغِلُّوا[1].

2 – و لا تغدروا ولا تمثِّلوا.

3 – و لا تقتُلُوا طفلاً صغيراً.

4 – و لاشيخاً كبيراً ولا امرأة.

5 – و لا تعقروا نخلاً [2] ولا تحرقوه.

6 – و لا تقطعوا شجرةً مثمرة.

7 – و لا تذبحوا شاةً ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة [3].

---

(1) – الغِلُّ: الغِشُّ أو الضِغْن والحِقْد، والإغلال: الخيانة والسَّرِقة الخفيَّة، [اللِّسان: غلل].

(2) – عقر النَّخلة: قطع رأسها، [اللِّسان: عقر].

(3) – مما سبق يتوضَّح أنَّ الإسلام يحرِّم استخدام أسلحة الدَّمار كالقنابل المحرقة الَّتي تقذف على الآمنين دون تمييز بين محاربين ومستضعفين مدنيِّين، وفي القرن العشرين، كيف تنتشر المبادئ؟ بالإقناع والحجَّة، أمْ بالقنابل والمدافع؟

8 - وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له.

9 - وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها.

10 - وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم اللَّـه[1].

رابعاً :

أمَّا عمر بن الخطَّاب، الَّذي يتَّهمه ڤيكتور هوغو بأنَّه هدم أربعة آلاف كنيسة، فوصاياه لجنده مشهورة، منها:

كتب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص[2]: «ونَحِّ منازلهم وجنودك عن قُرَىَ أهل الصُّلح والذِّمَّة، فلا يدخلها من أصحابك إلاَّ من تثق بدينه، ولا يرزأ[3] أحداً من أهلها شيئاً،

(1) - الكامل في التَّاريخ : 2 / 227، والطَّبري : 3 / 226.

(2) - سعد بن أبي وقاص، صحابي أمير، فاتح العراق ومدائن كسرى، [الأعلام 3 / 87].

(3) - رزأه مالَهُ ورزِئه يَرْزَؤُه فيها رُزْءاً : أصابَ من ماله شيئاً، [اللِّسان: رزأ]

فإِنَّ لهم حرمة وذمَّة، ابتُلِيتم بالوفاء بهـا --- ابتُلُوا بالصَّبر عليها، فما صبروا لكم وفُّوا لهم[1]».

ومرَّ رضي اللَّه عنه في أرض الشَّام بقوم مجذومين[2] من النَّصارى، فأمر أن يعطَوْا من بيت مال المسلمين، وأن يجري عليهم القوت بانتظام[3].

ولمَّا طُعِنَ رضي اللَّه عنه، مات وهو يوصي بأهل الذِّمَّة «فإنَّهم ذمَّة نبيِّكم»، وهذه ليست وصيَّة للمعاملة بالحُسْنَى، بل الرِّفق، لأنَّ الإِسلام لم يعرف في حياته شعار: «وَيْلٌ للمغلوب من الغـالـب».

أمَّا «العهدة العمريَّة» فتكفيه وحدها لردِّ افتراء هوغو، علماً أنَّه رضي اللَّه عنه لما حان وقت الصلاة، لم يقبل أن يصلي داخل الكنيسة، حفاظاً عليها، وضماناً لبقائها، ولكي لايقال: هنا صلى عمر، وسنجعل مكان صلاته مسجداً، فخرج رضي اللَّه عنه، ليصلي بجوارها، حيث بني مسجد عمر، الَّذي تعالت مئذنته وسمقت عالية، بجوار برج الكنيسة.

---

(1) – نهاية الأرب : 6 / 169.

(2) – جذم : قطع، والجُذام من الداء، معروف لتجذُّم الأصابع وتقطُّعها [اللِّسان : جذم].

(3) – البلاذري «فتوح البلدان»، ص : 135

وإليكِ نصُّ العهدة العمريَّة:

«بسم اللَّه الرحمن الرَّحيم

هذا ماأعطى عبد اللّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلِيَاء[1] من الأمــان :

أعطاهُم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّه لاتُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم، ولا ينتقص منها ولا مِنْ حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دِينهم، ولا يضارّ أحد منهم ...

وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمَّة رسوله، وذمَّة الخلفاء، وذمَّة المؤمنين.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة[2]».

فأخذت المستشرقة من يدي الجزء الثَّالث من تاريخ الطَّبري «تاريخ الرُّسل والملوك»، وعلامات الدَّهشة مرسومة على

---

(1) – إيلِيَاء : اسم مدينة بيت المقدس، ومعناه: بيت اللّه، [معجم البلدان 293/1].

(2) – الطبري 3 / 609، واليعقوبي 2 / 167.

محيّاها، وراحت تنقل «العهدة العمريّة» بصمت رهيب، ولما فرغت قالت: هذا النّصُّ يكفيني.

فقلت: «أفلح الأعرابي إن صَدَق». فابتسمت، وهزّت رأسها، وكأنها تقول: صادقةٌ، صادقة، ثمَّ قالت: أتريد أن تضيف شيئاً آخر للاستزادة والتوثيق؟

قلت لها ليرسو في قلبها اليقين: وعلى منوال «العهدة العمريّة» وقّع أبو عبيدة بن الجرّاح[1] معاهدة مع أهل دمشق، ووقّع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر.

وإليكِ أوّلاً معاهدة دمشق لأبي عبيدة:

لقد صالح أبو عبيدة أهل الشّام، واشترط عليهم حين دخلها:

«على أن تُترَكَ كنائسهم وبِيَعِهم[2]».

---

(1) - أبو عبيدة عامر بن الجرّاح : أمير قائد، فاتح الدّيار الشّاميّة، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، كان لقبه «أمين الأمّة» توفي بطاعون عَمَواس ودفن في غوربيسان، [الأعلام 3 / 252].

(2) - كتاب الخرَاج لأبي يوسف القاضي، ص : 80.

وإليكِ ثانياً معاهدة عمرو مع أهل مصر:

هذا ما أعطى عمرو بن العاص[1] أهلَ مصر من الأمان، على أنفسهم ومِلّتهم وكنائسهم وصلُبهم وبَرِّهم وبحرهم ... [2].

قالت: ولكن أخذ المسلمون جزيةً من غير المسلم؟

قلت: صحيح، ولكنها ليست لوناً من ألوان العِقاب، وإنّما هي مقابل الحماية الَّتي كفلها لهم المسلمون، «لأنَّ قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأموال[3]»، وقال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما، وبكل صراحة ووضوح: «فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم، ولا سبيل[4]».

فالحقوق العامّة لأهل الذِّمّة:

1– حفظ النَّفس: فدم الذِّمي كدم المسلم.

2– والقانون الجنائي سواء للمسلم والذِّمِّي، فالَّذي يعاقب به المسلم على ما يأتي من الجرائم يعاقب به الذِّمِّي أيضاً[5].

---

(1) – عمرو بن العاص : فاتح مصر، وأحد دهاة العرب وأولي الرَّأي والحزم والمكيدة فيهم، توفي سنة 664م.

(2) – الطبري : 4 / 109، وصبح الأعشى للقلقشندي.

(3) – بدائع الصَّنائع · 7 / 111.

(4) – كتاب الخَرَاج، ص : 83.

(5) – إلاَّ الخمر «ولا شك فإنَّ أهل الذِّمَّة قد استثنوا من حدِّها في الإسلام»، [كتاب الخَرَاج، ص : 208 – 209].

3 - وفي القانون المدني: المسلم والذمي سواء، وللذمِّيين أن يربُّوا الخنازير ويأكلوها ويبيعوها، ولهم أن يصنعوا الخمر ويشربوها ويبيعوها، وإن أتلف مسلم خمر الذِّمِّي أو خنزيره، كان عليه غرمه.

وجاء في الدُّر المختار 3 / 273 : «ويضمن المسلم قيمة خمره - خمر الذِّمِّي - وخنزيره إذا أتلفه».

4 - حفظ الأعراض: لايجوز إيذاء الذِّمِّي لا باليد، ولا باللِّسان، ولا شتمه، ولا ضربه، ولا غيبته، «ويجب كف الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم[1]».

5 - ثبوت الذِّمَّة: إنَّ عقد الذِّمَّة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً، أي أنَّه ليس للمسلمين أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذِّمَّة لهم الخيار أن يلتزموه ماشاؤوا، وينقضوه متى شاؤوا.

والذِّمِّي مهما ارتكب من كبيرة لاينقض بذلك عقده، حتَّى ولاينقض عقده كبائر الأفعال كالامتناع عن الجزية وقتل مسلم.. كلُّ هذه الأفعال يعاقب عليها الذِّمِّي في القانون كأحد من الجُنَاة، ولايُعَدُّ ذلك خروجاً على الدَّولة، ولايُخْرِج من عقد الذِّمَّة.

(1) - الدُّر المختار : 3 / 273 - 274.

على أنَّ هناك أَمْرَين يُخْرِجَان ولا شك من هذا العقد، أوَّلهما أن يغادر الذِّمِّيُّ دار الإِسلام إلى دار الحرب، والآخر أن يَخْرُجَ على الدَّولة الإسلامية علناً، ويبعث الفتنة في البلاد[1].

6 – الأمور الشَّخصيَّة: يقضي بها الذِّمِّيُّون بحسب قانونهم الشَّخصي.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإمام الحسن البصري[2] مستفتياً: مابال الخلفاء الرَّاشدين تركوا أهل الذِّمَّة وما هم عليه من نكاح المحارم، واقتناء الخمور والخنازير؟ فأجاب الحسن البصري: إنَّما بذلوا الجزية ليتركوا ومايعتقدون، وإنَّما أنت مُتَّبع لا مبتدع، والسَّلام[3].

أمَّا إذا طلب الفريقان بأنفسهما أن تقضي المحكمة بينهما بشريعة الإِسلام فتفعل المحكمة وتنفِّذ عليهما حكم الشَّرع، وأمَّا إن كان أحد الفريقين في قضيَّة تتعلَّق بقانون الأحوال الشَّخصيَّة مُسْلِماً، قضي بينهما بالشَّرع الإسلامي.

---

(1) – البدائع : 7 / 113، وفتح القدير : 4 / 381 – 382.

(2) – الحسن البصري : تابعي من مشاهير الثقاة، ولد بالمدينة وأقام في البصرة، وفيها توفي سنة 728م.

(3) – حقوق أهل الذِّمَّة في الدَّولة الإِسلاميَّة، أبو الأعلى المودودي، ص 18.

7 - الشّعائر الدِّينيَّة: ولأهل الذِّمَّة الحرِّيَّة في إظهار شعائرهم داخل معابدهم، فلا جناح عليهم، وليس للدَّولة الإسلاميَّة أن تتدخَّل بذلك، ولهم أن يرمِّموا هذه المعابد في مواضعها .

8 - التَّسامح في أخذ الجزية والخَرَاج: لقد ورد النَّهي عن التَّشديد على أهل الذِّمَّة في الجِزْيَةِ والخَرَاج[1]، والحث على الرِّفق واللُّطف معهم في كلِّ حال، ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الذِّمَّة فلا يعفى من الجزية فحسب، بل يجري له عطاء من بيت المال، وإن مات أَحَدُ الذِّميِّين وعليه شيء من الجزية، فلا يؤخذ من تركته، ولا يكلَّف ورثته بأدائه، يقول أبو يوسف القاضي :

«إن وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه، أو أُخِذَ بعضها وبقي البعض، لم يؤخذ بذلك ورثته، ولم تؤخذ من تركته[2]».

---

(1) - الخَرَاج : ضريبة تُفْرَض على الأرض الَّتي صُولح عليها عند الفتح وبقيت في أيدي أصحابها، تدفع كل عام مرَّة واحدة، قُبالة الانتفاع بشق الطُّرق وأقنية الماء .. [الأحكام السُّلطانيَّة : 171].

(2) - كتاب الخَرَاج، ص : 70.

تكلَّمت المستشرقة الايطالية «لورا ڤيشيا فاغليري[1]» عن المعاهدات التي وقَّعها المسلمون مع الذِّمِّيِّين، فقالت:

«مُنِحَت تلك الشُّعوب حرِّيَّة الاحتفاظ بأَديانها القديمة، وتقاليدها القديمة، شرط أَن يدفع الَّذين لايرضون الإسلام ديناً، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضَّريبة أخفَّ من الضَّرائب الَّتي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك، مُنِح أُولئك الرَّعايا «المعروفون بأهل الذِّمَّة» حماية لاتختلف في شيء عن تلك الَّتي تمتَّعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرَّسول والخلفاء الرَّاشدين قد أَصبحت فيما بعد قانوناً يتَّبعه المسلمون، فليس من الغُلُو أَن تصرَّ على أَن الإسلام لم يكتفِ بالدَّعوة إلى التَّسامح الدِّيني، بل تجاوز ذلك ليجعل التَّسامح جزءاً من شريعته الدِّينيَّة[2]».

وقالت «لورا ڤيشيا فاغليري» أيضاً:

«ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة، أَو اتَّخذوا الإسلام ديناً، وادخلوا في مِلَّتنا فتتمتَّعوا بالحقوق نفسها الَّتي نتمتَّع بها نحن[3]».

---

(1) – أستاذة اللُّغة العربيَّة في جامعة نابولي، لها كتاب مترجم إلى العربيَّة، عنوانه: «دفاع عن الإسلام».

(2) – دفاع عن الإسلام، ص : 34-35.

(3) – دفاع عن الإسلام، ص · 32.

ويقول [غوستاف لوبون[1]]:

«جزية زهيدة تقل عمًّا كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين من الضَّرائب[2]».

خامساً :

الكنيسة القبطيَّة في مصر، كم عمرها؟

كنائس في كلِّ المدن حتَّى يومنا هذا، تعود إلى ماقبل الفتح العربي الإسلامي، مع أنَّ مصر فُتِحَت أيَّام عمر بن الخطَّاب، فلماذا هُدِمَت الكنائس - كما يَدَّعي ڤيكتور هوغو - في بلاد الشَّام، وتُرِكت هنا في مصر، مع أن العقيدة واحدة، والخليفة واحد، والعصر واحد، حتَّى أن معظم الجند الفاتحين في مصر، كانوا من جُنْدِ الفتح في بلاد الشَّام؟

لقد ذُكِرَت الكنائسُ ودورُ العبادة في القرآن الكريم بكلِّ خيرٍ، فكيف يهدمها عمر ؟

---

(1) - غوستاف لوبون [1841 - 1931] من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيِّين، من كتبه الهامَّة : "حضارة العرب".

(2) - حضارة العرب، ص : 134.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّه كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

(الحج : 22 / 40)

سَادِسَاً :

ياأخت، عصر ڤيكتور هوغو عصر استعمار فرنسة للجزائر المسلمة، ودافع «كليرمون دي تونير» وزير الحربيَّة الفرنسي عن وجهة نظره المتعصِّبة - والصَّليبيَّة - في الاحتلال، في تقرير وجَّهه إلى الملك شارل العاشر، مما جاء فيه: «لقد أرادت العناية الإلهيَّة أن تثأر حميَّة جلالتكم بشدَّة في شخص قنصلكم على يد ألد أعداء المسيحيَّة، ولعلَّه لم يكن من باب المصادفة أن يُدعى ابن لويس التَّقي[1] لكي ينتقم للدِّين وللإنسانيَّة، ولإهانته الشَّخصيَّة في الوقت نفسه، وربما يسعدنا الحظُّ بهذه المناسبة لتنتشر المدنيَّة بين السُّكان الأصليِّين وندخلهم في النَّصرانيَّة».

---

(1) - لويس Louis التاسع: [1214 - 1270] قاد الحملتَين الصَّليبيَّتَين السَّابعة والثَّامنة.

ولمّا تمَّ احتلال الجزائر، أقام «بورمون» قائد الحملة الفرنسيّة صلاةَ الشُكر في فناء القصبة بمناسبة الانتصار، وبعث بوصف لهذا الاحتفال، قال في نهايته: «مولاي، لقد فتحتَ بهذا العمل باباً للمسيحيّة على شاطئ إفريقية، ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة الّتي اندثرت في تلك البلاد»، ولم يخفِ المؤرِّخون المعاصرون هذه الحقيقة، فوصف «إدوار دريو» المؤرِّخ الفرنسي المعروف بدراساته عن الشّرق حادثَ الاستيلاء على الجزائر: «بأنه كان أوّلَ إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام[1]».

يا أُخت، سقطت حصون المدينة - مدينة الجزائر - وأمليت على الدّاي شروط التّسليم، وفي صباح 5 تموز (يوليو)، ناصر 1830م، دخلت القوات الفرنسيّة المدينة العتيدة، ولم يراعَ البند الخاص باحترام الشّعائر الدِّينيّة كما نصّت المعاهدة، حينما حوّل الفرنسيّون المسجد الكبير إلى كتدرائيّة.

لقد كان الإسلام هدفاً كبيراً أمام الفرنسيين: «إذ كان الاستعمار الفرنسي استعماراً صليبيّاً، كما أعلنوا، ومن ثمّة

---

(1) - المغرب العربي، ص : 86، والجزائر أرض المعارك، ص : 54 / 55.

كانت أُولى أعمالهم هدم المساجد الأثريَّة الرَّائعة وتحويلها إلى كنائس ... وقف الجنرال روفيجو يشير إلى الفرنسيِّين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة، فأَشاروا عليه بجامع «القشاوة»، وهو من أجمل مساجد البلاد وأروعها، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم، انقضَّ عليهم الفرنسيُّون وذبحوهم عن آخرهم، وهم يعتصمون ببيت من بيوت اللَّه، وفي 18 كانون الأوَّل (ديسمبر)، الكانون من عام 1832، كان المسجد كتدرائيَّة الجزائر، ولقد حوَّلوا غير هذا المسجد مساجد أُخرى كنائس، مثل مسجد «القَصَبَةَ»، وهو من المساجد الَّتي ترتبط بها ذكريات إسلاميَّة مجيدة ...

وخلال هذه الحملة الصَّليبيَّة على أماكن العبادة الإسلاميَّة، قام أحد القسس المسيحيِّين، وهو القس «شوسيه» يتزعَّم هذه الحملة الباغية، ويسرف على نفسه وعلى المسيحيَّة، فيكتب إلى ملك فرنسة سنة 1839 منوِّهاً بأعمال الحاكم الفرنسي الصَّليبي، إنَّه يريد أن يضاعف عدد الصُّلبان والكنائس بالجزائر، إن مولاي لايستطيع أن يفعل مايشاء مع رجل مثل المسيو ڤاليه، الَّذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة، ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة، وكانت مكافأة هذا القس الصَّليبي أن يصير أوَّل راع لهذه الكنيسة الَّتي قامت على أنقاض مسجد من مساجد المسلمين !.

ويبلغ الحمق والحقد حدّاً كبيراً بأحد الفرنسيين، وهو سكرتير الحاكم «بوجو»، فيقول في الكنيسة الّتي قامت وسط دماء أربعة آلاف شهيد مسلم:

إنّ آخر أيّام الإسلام قد دَنَت، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أنّ هذه الأرض تملكها فرنسة، فلا يمكننا أن نشك في أنّها قد ضاعَت من الإسلام إلى الأبد، أمّا العرب فلن يكونوا مُلْكاً فرنسة إلاّ إذا أصبحوا مسيحيِّين جميعاً.

ومن أجل هذه الصّليبيّة في بلد إسلامي، بذل المبشِّرون جهوداً كبيرة، وشجّعت الإدارة الفرنسيّة بناء المعابد اليهوديّة، الكنائس المسيحيّة حتى صار في الجزائر 327 كنيسة لمسيحيِّين، و45 معبداً لليهود، إلى جانب 166 مسجداً فقط للمسلمين[1]، مع أنّهم أهل البلاد، والأغلبيّة السّاحقة من حيث لعدد !!

إنّ عصر هوغو عصر استعمار الجزائر، وهدم ساجدها، وتحويلها إلى كنائس، فكان «الاسقاط» لقد وُصِمَ

---

(1) - الجزائر أرض المعارك، ص : 74.

الفرنسيون بسوء عملهم وتعصُّبهم أمام الرَّأي العام العالمي كلِّه، فادَّعَى هوغو زوراً وبهتاناً و«إسقاطاً» : ياقوم، لاعجب ممَّا يجري على أرض الجزائر بعد استعمارها، لقد سبقنا المسلمون أيَّام عمر بن الخطَّاب إلى مثل هذا العمل، ليخفِّف من اشمئزاز العالم نحو قومه المستعمرين.

سابعاً :

لقد كانت بلاد الشَّام ميدان القتال الرَّئيس في مطلع القرن السَّابع الميلادي – قُبَيل الفتح الإسلامي – بين الفُرس والرُّوم البيزنطيِّين، لقد تَقَدَّم الفُرْس واحتَلُّوا أنطاكية سنة 611، ثمَّ القدس سنة 614 ، ثمَّ مصر سنة 619 ، ولكن هرقل Heraclius ، إمبراطور بيزنطة [610 – 641] ردَّ الفُرسْ إلى ماوراء نهر الفرات، واسترد عود الصَّليب سنة 622 ، ثمَّ كان – بعد عشر سنوات فقط – الفتح العربي الإسلامي، فانكسرت جيوش هرقل، وخَسِرَت بيزنطة سوريَّة وفلسطين «أي بلاد الشَّام»، وبلاد مابين النهرين ومصر.

فإن وجدت في بلاد الشَّام كنائس مهدَّمة مع بدايات الفتح العربي الإسلامي – أيَّام عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه – فهي من آثار الحروب الفارسيَّة البيزنطية قطعاً.

ثامناً :

يا أُخت، وأخيراً، وبشكل عام، لم يكن ڤيكتور هوغو أوَّل من افترى، وآخر من أسقط علينا سيئات قومه.

إن افتراءات المستشرقين تتكرَّر على رأس كلِّ جيل، أُولئك ركَّزوا على أُمور أُعيدت في كلِّ كتاباتهم، أهمُّها:

- محمَّد ليس نبيّاً، لأنَّه تلقَّى القرآن من ورقة بن نوفل، أو بَحِيرى ...

- والإِسلام مزيجٌ من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والوثنيَّة.

- وانتشر الإِسلام بالسَّيف، حين قال للنَّاس: أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإِحسانهم[1] ...

ويقع المبشِّرون بذلك «بالإِسقاط»، ولو ألزموا أنفسهم البحث العلمي الَّذي يفرض على الباحث الحرِّ المنصف أن يدرس الإِسلام كما يعتقده أهله، مجرَّداً من نزعاته السَّابقة، غير جاعل لصليبيَّته سلطاناً على حكمه: «حتَّى لا تسيِّره في دراسته، وتتحكَّم في اتجاهاته، لأنَّ ذلك قد يدفعه لأن يتزيَّد على القوم، والتَّزيُّد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتأوَّل

---

(1) - قدَّمنا في كتاب «الإِسلام في قفص الاتهام» ردَّ ونقض هذه الافتراءات وعشرات غيرها.

كلامهم بغير مايريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها، بل يدركها كما انعكست في نفسه، وكما رُسِمَت على قلبه، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته[1]».

ونحن لانريد أن نهاجم اعتقاداً، أو نُبْطِل عقيدة، فعندنا من سعة الصّدر ما يتّسع لردّ افتراءاتهم وهفواتهم، ولكننا نذكّر هؤلاء المبشّرين الّذين «أسْقَطُوا» علينا مافيهم، وماعندهم، أن مجمع نيقية 325 م أمر بتحريق الكتب الّتي تخالف رأيه، وتتبّعها في كلّ مكان، وحثّ النّاس على تحريم قراءتها، فهو بهذا منع أن يصل النّاس إلى علم بأيّ أمر من الأمور الّتي تخالف رأيه، ومنعها منعاً باتّاً جازماً أن تقرأ غيره، وسدّ عليها منافذ النّور للاهتداء إلى مايخالفه، والمجمع مخطئ في ذلك التّحريم، وآثم في ذلك التّحريق، بل إنّ المجامع العامّة من بعده خطّأته، فأعادت إلى حظيرة التّقديس كتباً حرّمها.

يقول المؤرّخ أبوسيبوس الّذي تقدّس الكنيسةُ كلامهُ، وتسمّيه سلطان المؤرّخين: «إن قسطنطين[2] عُمِّد حين كان أسير الفراش، وأن الّذي عمّده هو ذلك المؤرّخ نفسه، وقد كان صديقاً له»، والتّعميد إعلان دخول المسيحيّة، إذاً قسطنطين ماكان

---

(1) – محاضرات في النّصرانيّة، ص : 8.

(2) – قسطنطين بن قسطنتيوس كلورس [274 – 337]، امبراطور روماني منذ سنة 306، هزم خصمه ماكسانس على أبواب رومة سنة 312، وأطلق الحريّة للدّين المسيحي، أسس عاصمة جديدة سمّاها القسطنطينيّة ودشّنها سنة 330 م.

مسيحياً في إبَّان انعقاد ذلك المجمع، وما كان من حقَّه أن يحكم بفلج هؤلاء، ويسوغ لنا أن نقول إنَّه كان في هذا أرب خاص، هو تقريب المسيحيَّة من الوثنيَّة، أو على الأقل حينما رجَّح رأيَ فريق على آخر، كان يرجَح ماهو أقرب إلى وثنيَّته[1]

ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة، أجمع على ذلك مؤرِّخو النَّصرانيَّة، ثمَّ أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي، وأوائل القرن الثَّالث، أن تحافظ على الأناجيل الصَّادقة في اعتقادها، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة، وألزمت المسيحيين بها، وفرضت عليهم سلطاناً كهنوتيّاً أبعدهم عمَّا في أناجيلهم، ماذا كان في هذه الأناجيل الَّتي أُلغيت؟ وقد ثبت أن قسطنطين هو الَّذي رسَّخ التَّثليث ودعمه على حساب التَّوحيد.

والغريب أن المبشِّرين يؤمنون بعشرات الأنبياء لبني إسرائيل، فأيَّة صفة فيهم لانجدها في محمَّد بن عبد اللَّه ؟.

وما الأدِلَّة والمعجزات الَّتي قاموا بها، ولا نجدها في محمَّد بن عبد اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم إنْ لم نجد أعظم منها عنده ؟.

---

(1) - محاضرات في النَّصرانيَّة، ص : 128 / 130.

وماذا يضير هؤلاء المبشِّرين في انتشار عقيدة الإسلام على سطح كرتنا الأرضيَّة، وقد طرحت مبدأ المؤاخاة والتَّسامح، ولم تجعلها شعاراً، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال في كلِّ بلد فتحه المسلمون ؟

لقد كان من المفروض - بدل الافتراءات والشبهات- أن يطبع النَّصارى القرآن الكريم مع إنجيلهم، طبعوا التَّوراة وهي لم تذكر السَّيد المسيح وأُمَّهُ الطاهرة البَتُول ولو مَّرة واحدة، أمَّا القرآن الكريم، فتُلُثُه حياة مريم والمسيح.

جاء في القرآن الكريم سورة عائلة السَّيِّد المسيح: «آل عمران»، و «آل» كلمة تُخَاطَبُ بها العائلات الكريمة الطَّيبة الشَّريفة .

وسورة باسم معجزة السَّيِّد المسيح «المائدة» وفيها ثلاث معجزات للسَّيِّد المسيح لم تذكرها الأناجيل، وهي:

1 - نُزُول المائدة:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ *

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيَةً مِّنكَ وارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ ﴾

{المائدة · 5/ 112 - 115}

2 - وإحياء الطَّير:

﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ... ﴾ .

{المائدة : 5 / 110}

3 - والتَّكلُّم بالمهد .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وكَهْلاً [1] ... ﴾ ،

{المائدة . 5 / 110}

---

(1) - وفي سورة مريم [19 / 29 -33]: «... قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَاكُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً* وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً* وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً».

وسورة باسم والدته البتول «مريم»:

«وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ .

(مريم : 19 / 16- 21)

وسورة باسم الأتباع «الكهف» :

﴿... إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ .

(الكهف : 18 / 13)

وكلُّها من السُّورِ الطِّوال.

لقد فتح القرآن باب التَّسامح على مصراعيه حينما فتح حواراً مع المسيحيَّة عن طريق سورة المائدة (5 / 82 و 83) :

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَيَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وعن طريق سورة مريم وآل عمران، حيث التّقدير والاحترام للمسيح وأُمِّه الطّاهرة :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

{آل عمران: 3/ 43}

ولو وجدنا في الإِنجيل:

« واذكر في الكتاب خديجة، أو آمنة، أو إِنَّ اللّه اصطفى فاطمة ...»

لكان الحبُّ واللِّقاء مع مَنْ يُعَظِّم ويقدِّر ويُبَجِّل، ولرددنا التَّحية بأحسن منها، أو بمثلها على الأقل.

والتَّسامح وفتح الحوار للتَّآلف أمر طبيعي في الإِسلام، لسعة صدره من ناحية ولعالميَّته من ناحية ثانية:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

{آل عمران : 3 / 64}

قال رجا غارودي: «لم يدرس الغربُ الإِسلام دراسةً صحيحة، حتَّى في الجامعات الغربيَّة، وربما كان هذا مقصوداً مع الأسف».

ولذلك .. أَلَّف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً عنوانه: «اعتذار لمحمَّدٍ والقرآن»، اعتذر فيه مؤلِّفه عن التَّصوُّرات والأحكام الَّتي كانت شائعة في الغرب حول نبيٍّ الإسلام صلى الله عليه وسلَّم .

كَتَبت المستشرقة الفرنسيَّة معظم ماقُلتُ، ثمَّ قالت:

سأُعيد النَّظر في رسالتي، وبما كتبت فيها وأنا في فرنسة، وآمل أن أنقل وجهةَ نظرك هذه بأَمانة، وسأُخالف ڤيكتور هوغو بما قال وقرَّر.

قُلتُ: وأنا سأُسجِّل مادار بيننا من حوار خطِّيّاً، ومع أن سياسة الغرب مبنيَّة على مهادنة الإِسلام ريثما تتم الغلبة عليه، ستبقى سياسة الإِسلام - والمسلمين - التَّسامح وفتح باب الحوار مع العقائد الأُخرى، وآمل أن تكون المرحلة القادمة، وقد أشرفنا على مطلع القرن الحادي والعشرين، مرحلة الانتفاع من الخير أينما وُجدَ، ولو كان عند الإِسلام ونبيِّه، ومرحلة اتِّباع الحقيقة ولو خالفت مسلَّمات كنا نحملها عن الشَّرق وأهله.

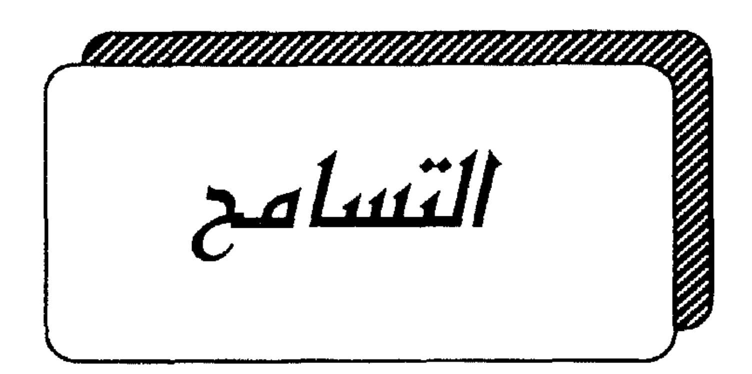
وبعد مجاملات، استأذن زميلي واستأذنت، فودعتهما قائلاً:

سأنشر مادار بيننا من حوار، بعد إضافة ثلاث نقاط:

1 - معنى التَّسامح لغوياً.

2 - كيف انتشر الإِسلام، وتسامحه وهو في أوج قوَّته وانتصاره، وكيف انتشرت المبادئ الأَخرى ؟ !

3 - مع تسجيل بعض الشَّهادات المنصِفَة عن تسامح الإِسلام وأهله.



جاء في [اللّسان: سمح]:

السَّماح والسَّماحة: الجُودُ، سَمُحَ سَماحَةً وسُمُوحةً وسَماحاً: جاد، ورجلٌ سَمْحٌ، وامرأة سَمْحة من رجال ونساء سِماح وسُمَحاء فيهما، ورجل سَميحٌ ومِسْمَح ومِسْمَاحُ: سَمْحٌ، ورجال مَسَامِيح ونساء مَسَاميح.

يقول جرير:

غَلَبَ المَسَامِيحَ الوَلِيدُ سَماحـةً
وَكَفى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ، وسَادَها

وقال آخر:

في فِتْيَةٍ بُسُطِ الأَكُفِّ مَسَامِحٍ
عِنْدَ الفِضَالِ نَديمُهُمْ لَمْ يَدْثُرِ

وسمح لي بِذلك يَسْمَحُ سماحة، وأَسْمَحَ وسامَحَ، وافقني على المطلوب، أنشد ثعلب :

لو كنتَ تُعطي حِين تُسْأَلُ سامَحَتْ

لك النَّفسُ، واحْلَولاكَ كلُّ خليلِ

والمسامحة: المُساهلة، وتسامحوا : تَسَاهَلُوا .

وفي الحديث الشَّريف:

«يقول اللَّه عزَّ وجل: أسْمِحُوا لعبدي كإِسماحه إِلَى عبادي».

الإِسماح: لغة في السَّماح، يقال سَمَح وأسمَحَ إذا جاد وأعطى عن كَرَمٍ وسَخَاءٍ.

وفي الحديث المشهور: «السَّماح رَباحٌ»، أي المُسَاهلة في الأشياء تُرْبِحُ صاحبها، وسَمَحَ وتَسَمَّح: فَعَلَ شيئاً فسَهَّل فيه، أنشد ثعلب:

ولكنْ إذا ماجَلَّ خَطْب فسامَحَتْ

بِهِ النَّفسُ يوماً، كانَ للكُرْهِ أَذْهَبا

قال ابن الأعرابي: سَمَحَ له بحاجته وأَسْمَح، أي سَهَّلَ له.

وسئل ابن عباس عن رجل شرب لبناً مَحْضاً أيتوضَّأ؟

قال: اسمحْ يُسْمَحْ لك، ومعناه -كما يقول الأصمعي- سَهِّلْ يُسهِّلْ لك وعليك، وأنشد:

فلما تنازعنا الحديثَ وأَسْمَحتْ

قال: أسْمَحت أسْهلت وانقادت.

وتقول العرب: عليك بالحق، فإنَّ فيه لَمَسْمَحاً، أي متَّسَعاً.

وعُودٌ سَمْحٌ بَيِّنُ السَّماحَةِ والسُّموحَةِ: لا عُقْدَة فيه.

ويقال: ساجَةٌ [1] سَمْحة إِذا كان غِلظُها مستويَ النَّبتَةِ وطرفاها لايفوتان وَسَطَه

وتسميح الرُّمح: تثقيفُه [2]، ورمحٌ مُسَمَّح: ثقف حتَّى لاَنَ.

والتَّسميح: السُّرعة، وقيل: التَّسميح: السَّير السَّهل.

* * *

(1) – السَّاج: خشب يجلب من الهند، واحداته ساجَةٌ، [اللِّسان · سَوَج]

(2) – تثقيف الرِّماح : تسويتها ، الثِّقاف : ماتُسَوَّى أو تقوَّم به الرِّماحُ ، [اللِّسان : ثقف].

وفي الأحاديث الشَّريفة:

- «اسمح يُسْمَح لك[1]»، أي سَهِّلْ يُسَهّل عليك.

- «إنِّي أُرسلتُ بحنيفيَّة سمحة[2]»، أي ليس فيها ضيق ولا شدَّة.

- «أفضل المؤمنين رجل سمح البيع، سمح الشِّراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء[3]».

- «رحم اللَّه عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى[4]».

- «أحبُّ الدِّين إلى اللَّه الحنيفيَّة السَّمحة[5]».

- «دخل رجلُ الجنَّة بسماحته[6] ...».

- «السَّماح رباح[7]»، أي المُساهلة في الأشياء يربحُ صاحِبُها.

---

(1) - رواه الإمام أحمد 1 / 248، ورجاله رجال الصَّحيح، إلاَّ مهدي بن جعفر.

(2) - رواه الإمام أحمد 6 /116.

(3) - رواه الطَّبراني في الأوسط، ورواته ثقاة.

(4) - رواه البخاري، وابن ماجه، والتِّرمذي.

(5) - رواه البخاري، والإمام أحمد 1 / 236.

(6) - رواه الإمام أحمد 210/3، ورواته ثقاة مشهورون.

(7) - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري: 2 / 298، تحقيق محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزَّاوي، دار إحياء الكتب العربيَّة ط1، 1963.

لم يَرِد فعل (سَمَح) ومشتقاتُه في القرآن الكريم، ولكن وردت كلمات تعطي المعنى ذاته، هي:

«الصَّفح» و «الإحسان»، اللَّذان هما: ضد التَّعنُّت، والتَّعصُّب، والتَّطرُّف، والغُلُو.

1- الصَّفح:

- ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

{البقرة 2/109}

- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

{المائدة : 5/ 13}

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالحَقِ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ ﴾ .

{الحِجْر : 15/85}

- ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ[1] أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالمهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّه وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

{النور : 24 / 22}

- ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

{الزُّخرف : 43 / 89}

2- الإِحسان[2]:

- ﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾.

{البقرة. 2 / 83}

- ﴿... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

{البقرة : 2/ 195}

---

(1) - لا يَأْتَلِ . لايُقْسِمْ.

(2) - آيات الإحسان في القرآن الكريم كثيرة، ننتقي بعضها فقط.

- ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

{النحل : 16 / 125}

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

{النحل 16 / 90}

-﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

{المؤمنون : 23/ 96}

- ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

{القصص : 28 / 77}

- ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ».

{العنكبوت : 29 / 46}

- ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

{فصّلت . 34/41}

* * *

فَالتَّسَامُحُ :

الَّذي هو الصَّفح والعفو والإِحسان.

والَّذي يقابله التَّعنُّت والتَّعصُّب والتَّطَرُّف والغُلُو ...

نظـرة إنسـانيَّة لايمتلكها إلا الإسـلام، «فبينما يقبـل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم، ويرفضون إكراه أحدٍ على ترك ملَّته، ويرضون أنْ يتآلَّف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين، ويُشَرِّعون نُظُماً عادلة لتطَبَّق عليهم وعلى منْ في ذمتهم من مسيحيين أو يهود.

بينما نفعل ذلك، نرى المسيحيَّة تتبَّرم من الديانات الأُخرى، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها، أو تحقيرهم وحرمانهم، حتَّى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النَّصرانيَّة جبراً.

وبينما يقول القرآن:

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

{البقرة : 2 / 256}

تنسب الكتب المقَّدسة إلى المسيح أنه قال لحوارييه: أجبروهم على اعتناق دينكم[1].

* * *

ولكن كيف نوفِّق بين تسامح الإِسلام، وبين الآيات الكريمة التَّاليـة:

- ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

{آل عموان : 28/3}

---

(1) - التَّعصُّب والتَّسامح، لمحمد الغزالي، ص : 56.

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾.

{المائدة : 5/ 51}

- ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَيَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾.

{التوبة : 9 / 8}

الآيات السابقة لاصلة لها البتَّة بموقف الإسلام المتسامح. لأنها وردت في المعتدين على الإسلام والمحاربين لأهله، وتنفير أفراد الأمَّة من معاونة خصومها واجب يتجدَّد في كلِّ عصر.

فصدور قانون يحرِّم التَّعاون مع قوَّات أجنبيَّة، لا يفهم منه البغضاء للعالم أجمع، وأنَّه يشتري خصومة العالم من غير مبرِّر.

لقد قال السيِّد المسيح:

«ماجئت لألقي سلاماً بل سيفاً[1]»

فهل يفهم أحد من ذلك أن رسالة المسيحيَّة إيقاد الحروب في الأرض، وأنَّها لاتحيا بين النَّاس إلاَّ لسفك الدِّماء؟

---

(1) - إنجيل متَّى : 10 / 34.

إن الإسلام يدفع عن نفسه إذا هوجم، ويأمر بمسالمة من يتركونه وشأنه، غير متعرضين لسير دعوته في الأرض، ولاصادّين أحداً عن الدّخول فيها[1].

﴿ ... لاَ تَتَّخذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ... ﴾ .

{المائدة 5/ 51}

الآيات الأحقة بهذه الآية المرتبطة بها في موضوعها تحدّد الموضوع بجلاء لايحتمل خلطاً.

«فالحقّ أن الآيات نزلت تطهيراً للمجتمع الإسلامي من ألاعيب المنافقين، ومن مؤامراتهم الّتي تدبّر في الخفاء لمساعدة فريق مُعيّن من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حرباً شعواء، واشتبكوا مع الدّين الجديد في قتال هو بالنّسبة لهم قتال حياة أو مـوت .

فاليهود والنّصارى في هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلاً، وقد بلغوا في حربهم منزلة من القوّة جعلت ضعاف الإيمان يفكّرون في التّحبّب إليهم، والتّجمّل معهم، فنزلت هذه الآية ونزل معها مايفضح نوايا المتخاذلين في الدّفاع عن الدّين الّذي انتسبوا إليه:

---

(1) – التّعصّب والتّسامح، ص : 40.

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾.

{المائدة : 5/ 52}

ثمَّ تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربِّصين والمتهجِّمين تطالبهم بمقاطعة المحاربين للإسلام من أهل الكتاب مسوغة هذه المقاطعة بأنَّها ردّ للعدوان:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ... ﴾

{المائدة : 5 / 57، 58}

فهل هناك ضير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة الَّذين يتهكَّمون بتعاليمه، ويسخرون من شعائره؟

أما قوله تعالى:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ... ﴾.

{التوبة : 9 / 8}

فالآية قبلها مباشرة تشرحها:

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ... ﴾.

(التوبة : 9/ 7)

والمعنى الَّذي لايضطرب عاقل في إدراكه أن المقصود بالآية هم الوثنيُّون المهاجمون للإسلام، الناكثون بعهودهم معه[1]

والآية الكريمة صريحة واضحة:

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

(الممتحنة : 60 / 8 ، 9)

---

(1) – التّسامح والتّعصب، ص : 41، عن : «الإسلام والاستبداد السّياسي».

فالإِسلام يمد يده لمصافحة أتباع الأديان الأُخرى لتحقيق التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدِّماء أن تُسفَكَ، وحماية الحرمات أن تنتهك.

والإِسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم.

وشتَّان بين التَّسامح والضَّعف والعجز، فكثيرون لايقدِّرون هذا النُّبل، وربّما استغلُّوا هذه السَّماحة في الإساءة إِلى الإِسلام، الَّذي وسعتهم دائرته المرنة.

كيف انتشر الإسلام
وكيف انتشرت الشّرائع الاخرى؟

اتّهاماتٌ بِالتّعَصُّبِ:

قال كارل بروكلمان: «يتحتّم على المسلم أن يعلنَ العدواء على غير المسلمين حيث وجدهم، لأنّ محاربة غير المسلمين واجب ديني[1]».

«مِنَ الثّابت أنّ الإِسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلاّ عندما كان يهدف إلى الغزو[2]».

(1) – تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة، ص : 78.

(2) – فردريك موريس : The Religions of The Word P.28 Cambirdge 1852

ويرجع كلٌّ من ميور وكيتاني ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكريَّة، وإكراه النَّاس على الدَّعوة الموجودة في تعاليم الإسلام[1].

«وأخضع سيفُ الإسلام شعوبَ إفريقية وآسية شعباً بعد شعب[2]».

«إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح[3]».

«في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الَّذي أسِّس على القُوَّة، وقام على أشدِّ أنواع التَّعصُّب، لقد وضع محمَّد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثمَّ سمح لأتباعه بالفُجُور والسَّلب، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدَّائم بالملذَّات[4]».

---

(1) – الدَّعوة إلى الإسلام، ص: 469.

(2) – التَّبشير والاستعمار، ص : 41.

(3) – لطفي ليفونيان. Levonian: 9

(4) – البحث عن الدِّين الحقيقي، المنسنيور ولي، ص : 220، ط 1928.

«إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة، وقالوا للنَّاس: (أسلموا أو موتوا)، بينما أتباع المسيح ربحوا النُّفوسَ ببِرِّهم وإحسانهم[1]».

* * *

إن هذه الافتراءات تتهاوى أمام عرض سريع لحقائق التاريخ -فبعض الرَّبيعِ ببعض العِطْرِ يُخْتَصَرُ- عن انتشار الإسلام:

أُذِنَ للمسلمين بعد هجرة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم بالقتال في الآية الكريمة:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... ﴾.

[الحج : 22 / 39 - 40]

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.

[البقرة 2 / 190]

---

(1) - تاريخ فرنسة، هـ . غيومان، ف لوستير، ص : 80 - 82.

إنَّ القتالَ لم يشرَّع في الإِسلام إلاَّ «دفاعاً عن النَّفْس» وما إلى ذلك من العِرْض والمال، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم ماأراد قتالاً أو سفك دماء في غزوة بدر الكبرى، لقد أراد حرباً اقتصاديَّة ضد قريش، ليعوِّض عمَّا صودر في مكَّة المكرَّمة .

وفي معركة أحُد أراد البقاء في المدينة المنَّورة، والمحاصرة لدفع قريش بأقل خسائر ممكنة.

وفي الخندق - غزوة الأحزاب - اتَّخذ صلى اللَّه عليه وسلَّم موقف المدافع، وفرَّق قريشاً ومن معها بإنشاب خلاف بينهم، كي لا تُزهَقَ أرواحٌ من الطَّرفَيْن، وحين أراد فتح مكَّة عندما نقضت قريش بنود صلح الحديبية بتشجيع قبيلة بكْر، على قبيلة خُزَاعَة[1] حليفة النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وسلَّم، أغلق وقطع الطريق المؤدية إلى مكَّة كي يعود إلى بلده الَّتي أُخرج منها، وليفهم قريشاً الَّتي تطاولت على نقض صلح الحديبية ولم تَفِ بعهدها استخفافاً وحقداً حينما أرادتِ القبائل العربيَّة أن تدخل في دين اللَّه بالاقتناع والموعظة الحسنة، وليفهمها أن دعايتها عن محمَّد أنَّه: كاهن، أو شاعر، أو مجنون .. قد تكشَّفت أمام العرب الَّذين رأوا في محمَّد رسول اللَّه: عاقلاً، حكيماً، دعوته حقٌ، ورسالته صدقٌ.

---

(1) - الكامل في التَّاريخ : 2 / 161، والطَّبري : 3 / 42.

لقد أراد صلى اللّه عليه وسلَّم دخول مكَّة دون أن تُزهقَ أرواح، أو تُراقَ دماء، فَعَهد إلى أُمرائه حين دخوله مكَّة: أن لايقتلوا أحداً إلا مَنْ قَاتَلَهُم[1].

فرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلَّم كان حريصاً ألاَّ تسفك دماء، لأن الدَّم العربي كان غالياً عنده، فهو الحريص على سلامته، على الرَّغم من شرك صاحبه ووثنيته، لأنه صلى اللّه عليه وسلَّم عارف بمكانة الأمة العربيَّة - على جاهليتها أنذاك- عند اللّه سبحانه وتعالى:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ[2] وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ . {الزُّخرف: 43 / 43، 44} .

هذا ماكان في الجزيرة العربيَّة أمَّا خارجها:

بلاد الشام:

«تحوَّل البدو المسيحيُّون إلى الإسلام بالتَّسامح[3]».

---

(1) - الكامل في التَّاريخ: 2 /166، والطَّبري: 3 /54.

(2) - أي شرف لك ولقومك.

(3) - الدَّعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص: 69.

«إنَّ هذه القبائل المسيحيَّة الَّتي اعتنقت الإسلام، إنَّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حُرَّة، وإن العرب المسيحيِّين الَّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التَّسامح[1]».

وقال أهل حمص[2]: «يامعشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا من الرُّوم، وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم - أي الرُّوم - غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»، وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل.

مصر:

«ولم يضع عمرو - بن العاص - يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السَّلب والنَّهب.

وليس هناك شاهد من الشَّواهد يدل على أنّ ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى الاضطهاد، أو ضغط يقوم على عدم التَّسامح من جانب حكامهم المدنيين، بل لقد تحوَّل كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح[3]».

---

(1) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 70.

(2) - فتوح البلدان، البلاذري، ص : 137.

(3) - الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : 92.

«وفي الحقِّ إنَّ سياسة التَّسامح الدِّيني الَّتي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحيَّة كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد[1]».

الأندلس :

ذكر (دوزي Dozy) تَسَامُحَ العرب في إسبانية مُظْهِراً رحمة الفاتحين، وَيُسْر الضَّرائب الَّتي فُرِضت، والَّتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة[2]، ذكر (دوزي) ذلك بكل إعجاب وفخـر .

ويقول شاهد عيان (John of Garz) الَّذي زار إسبانية حول منتصف القرن العاشر الميلادي: «ويستخدم المسيحيون الَّذين كانوا إبَّان حكم الإسلام الأماكن المقدَّسة وأملاكهم بحـريَّـة[3]» .

وقال آخر. «ولم يتعرَّض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدِّينيَّة[4]».

---

(1) – الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 157.

(2) – المرجع السَّابق، ص . 175 أيضاً.

(3) – John.of G.·rz P.352

(4) – Eulogiu, Men, Sanct lib. i.30

السِّنْدُ :

جاء في كتاب «فتح السِّند[1]» :

«ثمَّ أعطي الأمان للصُّناع والتُّجار وعوام النَّاس، وتركوا بعضاً من أسراهم، وتشكَّلت محكمة لردِّ المظالم[2] .. ثمَّ نودي على العوام المتضرِّرين بالحرب، والَّذين نُهِبَت أموالهم أثناء القتال من عوام النَّاس والصُّناع والتُّجار والكسبة الصِّغار، وتقرَّر إعطاء كلٍّ منهم اثني عشر درهماً[3]».

· ثمَّ أُعطيت الحريَّة الدِّينيَّة لسكان المدن الَّتي فُتحِتَ.

وتتكرر عبارة :

«واجتمع الصُّناع والتُّجار والعمال وأرسلوا رسالة إلى محمَّد بن القاسم الثَّقفي يطلبون فيها الأمان، فأعطاهم الأمان[4]».

---

(1) – فتح السِّند، أبو المظفر محمد بن سام. تحقيق د. سهيل زكار، نشر دار الفكر – بيروت.

(2) – المرجع السَّابق، ص : 2472.

(3) – المرجع السَّابق، ص : 2478.

(4) – المرجع السَّابق، ص : 2702.

ماوراء النَّهر :

«قضيَّة خالدة في تاريخ الإنسانيَّة»:

فتح المسلمون مدينة سمرقند الَّتي عُرِفَت في الإسلام بعد ذلك بأنَّها من مواطن الحضارة الإسلاميَّة، فتحها سعيد بن عثمان في عهد الأمويِّين، ثم فتحها عنوة[1] بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك.

قَبِلَ أهل سمرقند الأمر على مضض، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة 99 هـ ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدَّولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحقِّ ووفائه وبغضه للظُّلم، أنابوا عنهم وفداً يَلْقَى الخليفة، يشكو ماكان من قتيبة معهم.

ولقي الخليفة وفدهم، فعرضوا الأمر عليه، وقالوا فيما قالوه إن قتيبة غدر بنا ظلماً، وأخذ بلادنا، والأمر إليكَ لترفع عنا مانزل بنا على يديه، فتناول الخليفة قرطاساً وقلماً، وكتب إلى سليمان بن أبي سرح عامله على سمرقند كتاباً قال فيه:

إنَّ أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاجلس لهم قاضياً يقضي بالحقِّ في هذه الظُّلامة.

---

(1) - فتحها عنوة شيء، وفرض الإسلام بالسَّيف شيء آخر

وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إلى عامله، فأحال قضيتهم إلى القاضي جُمَيْع بن حاضر النَّاجي قاضي سمرقند، فاستمع إلى ظلامتهم، واستدعى شهودهم عليها، ثم استدعى شهوداً من الجيش الَّذي حضر الموقعة مع قتيبة فشهدوا بالحقِّ، شهدوا أنَّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم، بل فاجأهم بفتح.

ولمَّا وضح هذا أمام القاضي، أصدر حكمه في هذه القضيَّة صريحاً لاغموض فيه، قويّاً مجلجلاً ناطقاً بعدالة الإسلام وسماحته، قال القاضي: على الجيش الإسلامي الَّذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأهَّب للخروج منها فوراً، كذلك يخرج منها المسلمون الَّذين دخلوها بعد الفتح.

لقد كان لهذا الحكم رجَّة في أنحاء سمرقند، إذ ما كان يتصوَّر أحدٌ أنَّ تعاليم الإسلام تمضي على هذا النَّحو، وتعطي الحقَّ للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقر فيه .

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم ويطلب مشورته، فجاء الرَّدُّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره، وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهُّب للرَّحيل، وإلى المسلمين المدنيِّين بمغادرة سمرقند .

وبينما هذا يجري على قدم وساق، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ويفكُّ مخيَّماته، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودِّعون أهل سمرقند، ويحزمون أمتعتهم، ويعلنون بيع أملاكهم فيها، وإذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن في الحسبان، فقد جاء وفد يمثِّل أهل سمرقند إلى الوالي، وأبلغوه أنَّهم تشاوروا فيما بينهم، بعد هذا الحكم، الَّذي ما دار بخلدهم لحظة واحدة أنَّ تعاليم الإسلام لاتضيق بمثله، وأنَّهم ماكانوا يتوقَّعون أنَّ هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه، وأنَّهم ماكانوا يتصوَّرون أنَّ القاضي سيهمل في القضيَّة عصبيَّته لقومه، ولا يعيرها اعتباراً ولا وزناً، وأنَّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتَّب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم.

أمام هذا، وأمام حسن المعاملة الَّتي وجدوها من إخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال إقامتهم فيها، لايسعهم إلاَّ أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقِّهم، والمطالبة ببقاء الحال على ماهي عليه، لأنَّهم لن يخشوا بعد اليوم ضرّاً ينالهم، وإزاء هذه الرَّغبة الصَّادقة من أهل سمرقند، أُمِرَ الجيش بالبقاء، وأُمر المسلمون بعدم الخروج، وكانت فرحة مزدوجة من الجانبين.

وكانت هذه القضيَّة سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقند، وانضوائهم تحت راية الإِسلام، والإِخلاص لتعاليمه، والعمَل على نشرها، والاستمساك بما أمرت به، والاعتصام بحبل اللَّه المتين، حتَّى غدت سمرقند بعد مركزاً من المراكز الإِسلامية المرموقة، يأتيها الدَّاني والقاصي للتَّزوُّد بزاد المعرفة من علمائها[1].

وبعد فتح القسطنطينيَّة :

«ومن أُولى الخطوات الَّتي اتَّخذها محمَّد الثَّاني (محمَّد الفاتح) بعد سقوط القسطنطينية وإِعادة إِقرار النِّظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيِّين، بأَن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإِغريقيَّة، فحرَّم اضطهاد المسيحيِّين، تحريماً قاطعاً، ومنح البَطْريق الجديد، مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حقَّ التَّمتُّع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات الَّتي كانوا يتمتَّعون بها في العهد السَّابق، وقد تسلَّم جنَّاديوس أوَّل بَطْريق بعد الفتح العثماني من يد السُّلطان نفسه عصا الأسقفية الَّتي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية[2].

(1) – الطبري : 6 / 567.
(2) – الدَّعوة إلى الإِسلام، ص : 170 – 171.

ولقي الفاتحون «في بقاع كثيرة من المملكة -البيزنطية- ترحيباً من جانب الإغريق، فقد عدُّوهم مخلِّصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقيَّة، وقد صَيَّروا - أي الفرنجة - الشَّعب في حالة من العبوديَّة يرثى لها[1]».

ووضَّح كثير من المؤَرخين حالة دولة بيزنطة قبل الفتح، كقولهم:

«إنَّ أيَّة دولة لاتخاف القانون تشبه فَرَساً من غير زمام، لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشَّعب، فلم تعد في محاكمهم عدالة، ولا في قلوبهم شجاعة، وجمع القضاة الثَّروات من دموع الأبرياء ودمائهم[2]».

ولكن الفاتحين المسلمين بعد هذه الصُّورة القاتمة: «استطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصَّارمة أن ينشروا الأمن والنِّظام في المقاطعات كلِّها، ووجدنا تنظيماً رائعاً في الشُّؤون المدنيَّة والقضائيَّة[3]».

وتقبل كثيرون جداً الإسلام واعتنقوه، لماذا؟

---

(1) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 172، عن رحَّالة معاصر لفترة الفتح وهو:
The Travels Of Martin Baumgarten, P.373.

(2) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 173

(3) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 174.

«لقد أصبح الدِّين الإِسلامي في ذلك الحين الملجأ الطَّبيعي لأفراد الكنيسة الشَّرقية[1]».

ومِمَّا يذكر أن حرباً وقعت بين العثمانيِّين والمجريِّين، فبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله: ماذا تصنع لو انتصرت ؟ فأجاب: أُؤسِّس العقيدة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة، ثمَّ بحث عن السُّلطان العثماني وسأله : ماذا تصنع لديننا لو انتصرت؟ فأجاب:

«أُقيم كنيسة إلى جانب كلِّ مسجد، وأدع مطلق الحرِّيَّة لكلِّ فردٍ في أن يصلي في أيهما شاء[2]».

* * *

ويطول الحديث عن انتشار الإِسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، والاقناع والفكر، فبالتَّسامح وصل الإِسلام إلى سيبرية، وجنوبي الهند، وسيلان، وجزر مالديف «Maldives» ولكديف في المحيط الهندي، وإلى التيبت، وإلى سواحل الصِّين، وإلى الفيليبِّين وجزر أندونيسية وشبه جزيرة الملايو.

وبالتَّسامح والدَّعوة وحدها وصل الإِسلام أيضاً أواسطَ إفريقية.

---

(1) - الدعوة إلى الإسْلام، ص : 187.

(2) - المرجع السَّابق، ص : 223، عن:

Enripue Dupuy De Lome: Eschavosy. Turgufa PP. 17- 18 "Madrid 1877"

ماذا قالَ المسيحيونَ عن معاملة الفاتحين لهم؟

قال البطريقُ النَّسطوري (يشوع باف الثالث) في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فَارِس:

«إنَّ العرب الَّذين منحهم اللَّه سلطانَ الدُّنيا، يشاهدون ماأنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حقَّ العِلْم، ومع ذلك فهم لايحاربون العقيدة المسيحيَّة، بل على العكس، يعطفون على ديننا، ويكرمون قسسنا وقدِّيسي الرَّب، ويجودون بالفضل على الكنائسوالأديار».

ويعلق توماس أرنولد على هذه الرِّسالة بقوله:

«تحمل هذه الرِّسالة الدَّليل السَّاطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدِّين الجديد[1]».

---

(1) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 102.

وتقول المستشرقة الإيطالية (لورا ڤيشيا فاغليري) عن روعة انتشار الإسلام:

«أيَّة قوة عجيبة تكمن في هذا الدِّين ؟

أيَّة قوَّة داخليَّة من قوى الإقناع تنصهر به ؟

ومن أيٍّ غور سحيق من أغوار النَّفس الإنسانيَّة ينتزع نَدَاوَةَ استجابة مزلزلة ؟ [1]».

ووصف الكونت هنري دي كاستري المسلمين بقوله:

فلم يقتلوا أُمَّة أبت الإسلام.

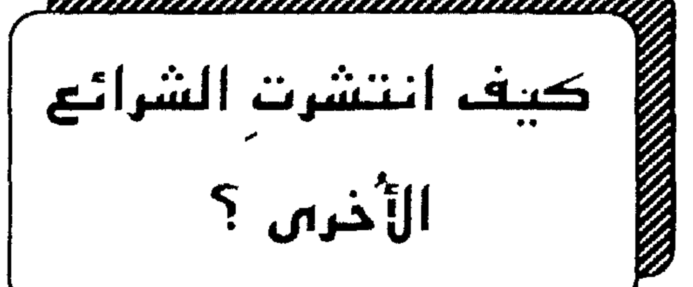
ولم يُكْرَه أحدٌ على الإسلام بالسَّيف، ولا باللِّسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ماأُودع في القرآن من مواهب التَّأثير والأخذ بالألباب[2].

* * *

---

(1) - دفاع عن الإسلام، ص : 40.

(2) - الإسلام خواطر وسوانح ، ص : 35.



البوذيّة[1] :

لاشأن لها قبل (آزوكا) الَّذي اعتنقها واهتم بنشرها خارج مملكته حتّى وصل سيلان وبورما، فآزوكا تبنّاها وأخذ بنشرها حتّى شملت جنوب شرقي آسية[2].

---

(1) – بوذا (بدها غوتما) : حوالي 566 – 486 ق . م، مؤسّس الدّيانة البوذيّة.

(2) – تاريخ الحضارة، لجورج حداد.

المزدكيّة[1] :

لم يكن لها اعتبار قبل (قباذ)، فهذا الملك الفارسي تبنّى هذه العقيدة، وحاول فرضها جبراً على شعبه كُلِّه، وحتى المناذرة العرب التّابعين له في العراق[2]، وبزوال سلطان قباذ ضعف شأن المزدكيّة .

الزرادشتيّة[3] :

لم تنتشر قبل (دارا) كسرى الفرس، الّذي نشرها حرباً بعد قرنٍ من وفاة زرادشت، حتّى وصل بها أثينة عاصمة اليونانيين القدماء.

الكونفوشيوسيّة[4] :

ماانتشرت تعاليمها إلاّ لاستخدام صاحبها لمركزه رئيساً للوزراء في مقاطعة (لُو) الصِّينيَّة.

---

(1) – مَزدَك، داعٍ فارسي، أراد شيوع الأموال والنِّساء.

(2) – تاريخ الأمم الإسلاميّة، الشيخ محمد الخضري، والملل والنِّحل 2 /88.

(3) – زرادشت (ت حوالي 583 ق.م) أصله من أذربيجان.

(4) – كونفوشيوس: [551 – 478 ق.م]، اسمه في الصِّين Kung Fu Tzu.

المسَيحيَّةُ :

أَوَّلاً وقبل كلِّ شيء:

ليست المسيحيَّة الَّتي أنزلها اللَّه على نبيِّه عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، هي الَّتي شرعت للنَّصارى في العصور الأُولى والوسطى تعاليم همجيَّة متعطِّشة إلى سفك الدِّماء، وإهلاك النَّاس.

والمسيحيَّة لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين الَّذي أراد أن يكون سيِّدها، فاستغلَّ الخلافات الدَّاخليَّة للكنيسة، وأصدر مرسوم ميلانو سنة 313 م، الَّذي اعترف بموجبه بالمسيحيَّة، وأهال عليها أُعطيَاته.

ثانياً :

«ظلَّ شارلمان يحارب السَّكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة، كلها عنف ووحشيَّة، حتَّى أخضعهم وحوَّلهم قسراً إلى الدِّيانة المسيحيَّة، كما تطلَّب ثماني رحلات حسوماً متتابعة، حتَّى هزم الآفاريِّين الَّذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدَّسة إنَّها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة، إلى شاهق الفيض والوفرة[1]».

---

(1) - تاريخ أُوربة العصور الوسطى، فيشر : 1 / 61.

«فرض شارلمان على السكسونيِّين الوثنيِّين النَّصرانيَّةَ بالسَّيف، ولما ضعف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة، اعتنقوا المسيحيَّةَ آخر الأمر، وخضعوا لحكم الفرنجة.

وكان فرض هذا الدِّين على السكسونيِّين على يد القِّديس ليودجر Liudger وويليهاد Willehad [1]».

«ولقد أُكرهت مِصْرُ على انتحال النَّصرانيَّة، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الَّذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي[2]».

وفي الدنمارك: نشر الملك (كنوت Cnut) المسيحيَّة في ممتلكاته بالقوَّة والإرهاب.

«ومن ثَمَّ أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حروب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من الشَّوق إلى نشر العقيدة[3]».

---

(1) - Monumenta Cermaniac Historica G.H Pexlr

(2) - حضارة العرب، ص : 336.

(3) - الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 30.

وفي روسية :

نُشَرت الدَّعوة المسيحيَّة على يد جماعة اسمها – تمعَّن باسمها– :

«إخوان السَّيف[1]» Bretheren of The Sword.

«أمَّا كيف كَان دخول المسيحيَّة روسية، فيبدو أوَّلاً أنَّه تمَّ على يد فلاديمير دوق كييف [985 - 1015 م]، وهو سليل رورك، ويضرب به المثل في الوحشيَّة والشَّهوانيَّة، إذ جاء إلى الدُّوقيَّة فوق جُثَّة آخر إخوته، واقتنى من النِّسوة ثلاثة آلاف وخمس مئة[2]، على أنَّ هذا وذاك كله، لم يمنع من تسجيله قدِّيساً في عداد القدِّيسين بالكنيسة الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة، لأنَّه الرَّجل الذي جعل من كييف مدينة مسيحيَّة، وجعل من الرُّوسيِّين شعباً على دين المسيح (زعيم بغفران ذنوبه)، وقد أمر فلاديمير بتعميد أهل دوقيَّة روسية كلهم مرَّة واحدة في مياه نهر الدنيبر[3]».

---

(1) – الدَّعوة إلى الإسلام، ص 31.

(2) – في (Camb, Med . Hist, iv P.208) حيث ورد أن عدد أولئك النِّسوة اللاَّتي اختارهن فلاديمير لنفسه، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيَّات، لم يكن سوى ثلاث مئة، وهو أقرب إلى الاعتدال.

(3) – تاريخ أوربة في العصور الوسطى، ص : 407.

وفي النَّروج :

قام الملك (أُولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الَّذين أبوا الدُّخول في المسيحيَّة، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر المسيحيَّة في (فيكن) القسم الجنوبي من النَّروج بأسرها[1]».

وجاء في كتاب (صلاح الدِّين الأيوبي) قصَّة الصِّراع بين الشَّرق والغرب خلال القَرنَيْن الحادي عشر والثَّاني عشر، لقدري قلعجي مايلي:

«سمَل باسيليوس الثَّاني ناشر المسيحيَّة في روسية أعْيُنَ (15 ألف) من أسرى البلغار، إلاَّ مئة وخمسين منهم، أبقى لكلٍّ واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم لبلادهم.

وفي أمريكا :

إبادة للهنود الحُمْر، وهذا كان أيضاً نصيب حضارة الأنتيل، وحضارة المايا، وحضارة الأزتيك، وحضارة الأنكا في بيرو.

---

(1) – الدَّعوة إلى الإسلام، ص : 32.

وهناك مثالٌ حيٌّ على ما رافق الكشوفات الجغرافية الأوربيَّة :

نشرت صحيفة الحياة (البيروتيَّة) صورة لما رافق استكشاف جزيرة (هاييتي) على يد الإسبان، كانت المادَّة العلميَّة تحتها مايلي:

«وانشغل ضبَّاطه وخلفاؤه أوَّل الأمر - خلفاء المستكشف قائد الحملة - باستكشاف جزيرة هاييتي (إسبانيولا) واحتلالها، وكانت ماتزال في داخلها أرض شاسعة مجهولة، وقد تولَّى هذه المهمة كلٌّ من دييغو فلاسكيز وپانفيلو دونارفين، فأبديا من ضروب الوحشيَّة مالم يسبق له مثيل، متفنِّنين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم، وفقء عيونهم، وصبِّ الزَّيت المغلي، والرَّصاص المذاب في جراحهم، أو بإحراقهم أحياء على مرأى من الأسرى، ليعترفوا بمخابئ الذَّهب، أو ليهتدوا إلى الدِّين.

وقد حاول أحد الرُّهبان اقناع الزَّعيم (هانيهاي) باعتناق الدِّين، وكان مربوطاً إلى المحرقة، فقال له إنَّه إذا تعمد يذهب إلى الجنَّة، فسأل الزَّعيم الهندي: وهل في الجنة إسبانيُّون ؟ فأجابه الرَّاهب: طبعاً، ماداموا يعبدون الإله الحقَّ !.

فما كان من الزَّعيم الهندي إلاَّ أن قال: إذاً، أنا لا أُريد أن أذهب إلى مكان أُصادف فيه أبناء هذه الأُمَّة المتوحِّشة[1].

ليس هذا بمعلوم لنا فقط، بل نشرت Cuba Internacional Joulio 1972 تحت عنوان LA HISTORIY ، ص: 6 صورة لمبشِّر بيده صليب، وزعيم مقيَّد إلى سارية، وقد غطِّي حتَّى منتصفه بحزم الحطب والقش لحرقه، أمَّا المبشِّر فرافع الصَّليب في وجهه يدعوه إلى المسيحيَّة قبل موته.

---

(1) – الحياة : العدد2494، الأربعاء 23 حزيران (يونيو)، الصيف 1954.

محاكم التّفتيش [1]:

The Inquisition

بدأت بمصرع غَرْناطة[2] مرحلة مؤلمة مؤسفة لشعب مُسْلِمٍ مغلوب، وعدوٍّ خائنٍ نقض شروط المعاهدة التي وُقِّعت في 25 تشرين الثّاني (نوفمبر) 1491م، بين أبي عبد اللّه الصغير[3] وفرديناند[4]، والّتي اشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتزام والوفاء بالشّروط، إذا مكّنوا النّصارى من غَرْناطة والمعاقل والحصون، ويقسم على ذلك، على عادة النّصارى في العهود .

---

(1) – محاكم التّفتيش (أو محاكم التّحقيق)، شكّلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثّاني (نوفيمبر)، التمور سنة 1478م.

(2) – في 2 كانون الثّاني (يناير)، أي النار سنة 1492م.

(3) – آخر ملوك غَرْناطة.

(4) – فرديناند ملك أراغون وقشتالة، زوج إيزابيلا (1469م).

ومما جاء في معاهدة تسليم غَرْناطة:

« .. تأمين الصَّغير والكبير في النَّفس والأهل والمال وإبقاء النَّاس في أماكنهم ودورهم ورِبَاعهم[1] وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ماكانت، ولا يحكم على أحد منهم إلاَّ بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصَّارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً .. وأن لايُؤخذ أحد بِذَنْب غيره، وأن لايُقْهَر مَنْ أسلم على الرُّجوع للنَّصارى ودينهم .. ولاينظر نصراني على دور المسلمين، ولايدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير في بلاد النَّصارى آمناً في نفسه وماله .. ولايُمْنَع مؤذِّن ولا مُصَلٍّ ولاصائم ولاغيره من أمور دينه .. وأن يوافق على كلِّ الشُّروط صاحب رومة ويضع خطَّ يده[2] ».

ومع قَسَمِ فرديناند وإيزابيلا الرَّسمي بالله، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرِّيَّة في العمل في أراضيهم، أوحيث شاؤوا وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن الأيمان والعهود لـم تكن عند مَلِكَي النَّصارى سوى ستار

---

(1) - الرَّبْعُ : المنزل والدَّار بعينها، والوَطَنُ متَّى كان، وبأيٍّ مكان كان، وجمعه أَرْبُعَ ورباعُ وربُوعُ وأرْباعُ، [اللِّسان: ربع].

(2) - نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب ٠ 6 / 277 - 278.

للخيانة والغدر، وأن هذه الشُّروط الخلاَّبة نُقِضَت جميعاً بعد تسليم غَرْناطة، ولم يتردَّد المؤرِّخ الغربي (بروسكوت Prescott) أن يصفها بأنها أفضل مادَّة لتقدير مدى الغَدر الإِسباني فيما تلا من العصور[1].

لقد نقض الإسبان شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النُّطق بالعربيَّة في الأندلس، وفرضوا إجلاء المسلمين الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردنيال (أكزيمينيس) على ذلك، فأمر بجمع كلّ مايستطاع جمعه من الكتب العربيَّة، ونُظِمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لاتُقَدَّر بثمن، بل هي خلاصة مابقي من تراث التَّفكير الإِنساني،وأحرقها.

يقول غوستاف لوبون متحسراً على فعلة الكردنيال (أكزيمينيس):

«ظنَّ رئيس الأساقفة الإِسباني (أكزيمينيس) أنَّه بحرقه مؤخَّراً ماقدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب، أي ثمانين ألف كتاب، مَحَا ذكرهم من صفحات التَّاريخ إلى الأبد، فما دَرَى أن ماتركه العرب من الآثارالَّتي تملأ بلادَ إِسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد[2]».

---

(1) - مصرع غَرْناطة، ص : 85.

(2) - حضارة العرب، ص · 339.

ولقد هدفت محاكم التَّفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السُّلطات الكنسيَّة، وبأشدِّ وسائل العنف، ولم تكن العهود الَّتي قُطِعَت للمسلمين لتحول دون النَّزعة الصَّليبيَّة، الَّتي اسبغت على سياسة إسبانية الغادرة ثوب الدِّين والورع.

ولما قاوم المسلمون التَّنصير وأبَوْه، عُدُّوا ثواراً متَّصلين بالمغرب والقاهرة والقسطنطينيَّة، وبدأ القتل فيهم، فثاروا في غَرْناطة وريفها[1]، فمُزِّقوا بلا رأفة، وفي 20 تموز (يوليو) 1501م، أصدر المَلكان الكاثوليكيَّان أمراً خلاصته:

«إنَّه لما كان اللَّه قد اختارهما لتطهير مملكة غَرْنَاطة من الكَفَرة(!) فإنَّه يحظِّر وجود المسلمين فيها .. ويعاقب المخالفون بالموت، أو مصادرة الأموال[2]».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه، وأظهر تنصُّرَه فبدأت محاكم التَّفتيش نشاطها الوحشي المروِّع، فحين التَّبليغ عن مسلم أنَّه يخفي إسلامه، يُزَجُّ به في السِّجن، وكانت السُّجون رهيبة. عميقة، مظلمة، رطبة، تغصُّ بالحشرات والجرذان ... ويُصَفَّد فيها المتَّهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتُدفَعَ نفقات سجنهم.

---

(1) - كالبيازين والبشرات.

(2) - مصرع غَرْناطة، ص 99

ومن أنواع التَّعذيب: إملاء البطن بالماء حتَّى الاختناق، وربط يَدَيْ المتَّهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتَيْه وبطنه، ورفعه وخفضه معلَّقاً، سواء بمفرده أو مع أثقالٍ تُرْبط معه.

والأسياخ المحميَّة.

وسحق العظام بآلات ضاغطة.

تمزيق الأرجل، وفسخ الفك ...

ولا يوقف التَّعذيب إلا إذا رأى الطَّبيب حياة المتَّهم في خطر، ولكن التَّعذيب يُسْتأنف متى عاد المتَّهم إلى رشده، أوجفَّ دمه [1].

وقرار المحكمة لايتم إلاَّ حين التَّنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبَّد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الَّذين يشهدون مع المَلِكَيْن الكاثوليكَيْن حفلات الإحراق.

---

(1) – ومن أنواع التَّعذيب : الدَّفن على قيد الحياة، انظر فصل : (طرق التَّعذيب في محاكم التَّفتيش) ص · 91، من كتاب : (محاكم التَّفتيش).

وهذه صورة من محاكمات التَّفتيش[1] :

قُبِضَ على مسلم وسيق إلى المحاكمة، وكان ثبات ذلك الرَّجل أمام هيئة المحكمة، مما دَعَا إلى زيادة حفيظتهم عليه، والمبالغة في تعذيبه.

جيء بذلك الرَّجل أمام المحكمة، فقال رئيس المحكمة لجنود التَّفتيش: ضعوا الحديد في أصابعه الآن وقدِّموه إلينا، ففعلوا، ثم جيءَ بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم، فسقط مغشياً عليه، فقال الرَّئيس: أوقفوه، فأجاب أحد الحرَّاس: إنَّه لايقوى على الوقوف، فقال رئيس المحكمة: إذاً فضعوه في التَّابوت فإنَّه يقف فيه.

فوضعوه في التَّابوت، وهو صندوق مربَّع فيه مسامير من الدَّاخل، فاضطر المعذَّب أن يقف رغم مابه من إعياء وضعف ثم رفعوا الكمَّامة الَّتي كانت على فمه ليتمكَّن من الإجابة على الأسئلة، وتنفَّس المسكين الصُّعداء طويلاً، أمر الرَّئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمر، فلما شرب قليلاً منها تفتَّحت عيناه، وحدث عنده شيء من الانتعاش، وفحصه الطَّبيب حتَّى علم أنَّه

---

(1) – عن كتاب (محاكم التَّفتيش)، د. علي مظهر، طبعة 1947، ص · 82، تحت عنوان : (محاكمة مسلم من بقايا المسلمين، وكيفية استجوابه أمام محكمة التَّفتيش).

قادر على الوقوف والاستجواب، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة، فوجَّه إليه الرَّئيس الأسئلة الآتية:

قال الرَّئيس: ماسمك ؟ فأجاب : أنا مسلم عربي.

الرَّئيس : كلا، بل اذكر اسمك المسيحي الجديد، فأجاب: صموئيل فرناندس.

الرَّئيس : قل صدقاً : كم عمرك؟ فأجاب : ثلاث وثلاثين سنة مثل عمر المسيح.

الرَّئيس : إذاً أنت مستعد للتَّضحية ؟ فأجاب : بإذن اللّه.

الرَّئيس : أتقبل ذلك وأنت راضٍ ؟ فأجاب : نعم.

الرَّئيس : إذاً قل : من هو إلهك ؟ فأجاب : هو إلهكم نفسه .

الرَّئيس : وما اسمه ؟ فأجاب المسلم : اللَّه في سماء ملكوته .

الرَّئيس : بل قل معي: يسوع المسيح، فأجاب وهو يرتعد : يسوع المسيح.

الرَّئيس : يظهر عليك أنَّك تأثَّرت من ذكر هذا الاسم أليس كذلك؟

قال الرَّجل مجيباً : أجل.

الرَّئيس : وما نوع ذلك التأثير ؟ فأجاب : تأثير داخلي.

الرَّئيس : وماذا قال لك هذا الصَّوت الدَّاخلي.

الرَّجل : لاأدري، فإنِّي الآن لاأردي ماأقول.

الرَّئيس : قل مافكَّرت فيه بصوتٍ مسموع.

الرَّجل : لا أقدر على الكلام، لأنِّي متألِّم جداً من الضَّغط على صدري، والكلام لايكون حسب الأمر، بل حسب الاستطاعة.

الرَّئيس : ستنظر ذلك جيِّداً جداً.

ونظر الكاتب إلى الرَّئيس مستفهماً، فقال الرَّئيس : أظن أنَّ ضرب وجهه بالسَّوط يُمكِّنه من الكلام.

وسرعان ماجذبه أحد رجال التَّعذيب، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبَّللة بالماء، فاحمرَّ جلد وجهه، وكاد يخرج منه الدَّم، وجعل يتلوَّى من الألم، فقال له كاهن : تعالَ ياصموئيل، تقدَّم واعترف أمامي بكلِّ خطاياك، وقل لي: بماذا تفكِّر الآن ؟ قلِ الحقَّ قبلما يحلُّ بك القصاص، تقدَّم يابني، الحقُّ بيدك يامحمَّد، لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحيَّة، فلماذا سُمِّيت صموئيل، ولم تختر اسم قدِّيس مسيحي كبطرس أو بولص ؟ ثمَّ نظر إلى الكاتب وقال اكتب : أين ولدت ؟ فأجاب: في طنجة.

الكاهن : أإسباني أنت ؟ فأجاب : كنتُ إسبانياً.

الكاهن : ولماذا تقول كنتُ ؟ فأجاب : أقول هذا لأني لست بإسباني لكي أظلَّ إسبانياً إلى الأبد.

الكاهن : وأبوك ؟ فأجاب : ليس لي أبٌ، فإنَّه قد مات.

الكاهن : وأمُّك ؟ فأجاب : ماتت أيضاً.

الكاهن : وأين ماتا؟ فأجاب : في سجون ديوان التَّفتيش.

الكاهن : أحرقاً ؟ فأجاب : كلا بل تعذيباً حتَّى تهرَّأت أجسادهما، فماتا من شدَّة العذاب.

الكاهن : وبماذا اتُّهما ؟ فأجاب : لقد كانا بريئَيْن.

الكاهن : هل لك إخوة ؟ فأجاب : أظنُّ ذلك.

الكاهن : كيف تظن ؟ أين إخوتك ؟ وأين يقيمون ؟

الرَّجل : بل قل أوَّلا : أين ماتوا ؟ وأين قبورهم ؟

الكاهن : يظهر أنَّكَ تريد أن ينفد صبرنا معك، فسنبدأ بتعذيبك.

الرَّجل : يسوءني هذا.

الكاهن : إذاً أنت لاتريد أن تدلنا على البقيَّة الباقية من إخوتك، ولا عن مكان إقامتهم ! إنَّ الدِّيوان المقدَّس لايخفى عليه

أن لك إخوة هم على قيد الحياة، وهم يصلّون في مساجد خفية، ألاتعلم أين هم ؟ !

الرّجل : لا أعلم.

الكاهن : لما صدر الأمر بسجنهم هربوا، أفلا تعلم إلى أين ؟ الرّجل : كلاّ.

الكاهن : تذكّر جيّداً علّك تعلم.

الرّجل : كيف يمكنني أن أتذكّر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل ؟

الكاهن : يجب أن تساعدنا على معرفة مَقرّهم حتّى نخلّص نفوسهم.

الرّجل : على غرار ماتفعلون معي الآن.

الكاهن : أنت تسكن مع امرأة، فمن تكون هذه ؟ فأجاب: زوجي.

الكاهن : كيف يمكنك ادّعاء هذا ؟

الرّجل : هل تريد أن يكون الأمر كذلك ؟

الكاهن : علمنا أنّها مسيحيّة، وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي، وتنبذ العفاف، فيجب عليك أن تسلّم زوجك للديوان المقدّس.

الرّجل : هل هذا هو العفاف والدّين عندكم؟

الكاهن : نحن لانجادلك بل نأمرك.

الرَّجل : إذا كنتم تأمرونني، فأولى بكم أن تقتلوني، وهذا كلُّ مايمكن أن تفعلوه، وعندئذ سوف تصلِّي زوجتي من أجلي.

الكاهن : ويلك ياشقي، لاتزال مُصِراً على إنكارك ؟ اصلح هفواتك وخطاك ياهذا ، وإلاً فإنَّك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً، والآن فلنتم أعمالنا ، أين إخوتك ؟ وأين زوجك ؟.

الرَّجل : هم في مكان أمين.

الكاهن : ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا ؟

الرَّجل : إنِّي أعترف إلى اللّه خالقي فحسب، أنتم تعذبونني واللّه يعلم إنِّي برئ.

الكاهن : سوف تساق إلى التَّعذيب الآن، فالأوْلى لك الإقرار.

الرَّجل : لايهمُّني العذاب، فإن جسمي مخدَّر ولايشعر.

الكاهن : إذا لم تُجِب على ماسألناك الآن، فسوف تُسْقَى الماء رغم أنفك، يدفع إليكَ من حلقك حتَّى يقضي عليك.

الرَّجل : لقد احترقت رجلاي أوَّلاً بناركم، فلم أمُت حتَّى الآن.

فقال أحد القُسُس، وهو يتصنَّع الرِّقة والعطف عليه، بصوت متكلَّف:

اعلم يابني أنَّنا لانرمي من وراء تعذيبك إلاَّ إلى الإقرارعن بقيَّة أهلك الَّذين تحبهم، وبذا تُنْجِي نفسك ونفوسهم، ونصعد بكم إلى السَّماء.

فأجاب الرَّجل : إذا صعدنا نحن إلى السَّماء، فمن يهوي بكم إلى الجحيم وبئس القرار؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذِّبين المرتدين الثِّياب السُّود، الواقفين أمام آلات التَّعذيب، فهجموا عليه، وأخَذ بعضهم يضع الحبالَ في يديه وصدره معاً، ويلفُّها لفّاً، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق، ثمَّ وضعوه على مائدة خاصَّة، وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً، وتقدَّم أحَدُ هؤلاء المعذِّبين وهو يحمل جرَّة ملأى بالماء، وتقدَّم آخر وفي يده قُمْع، فقال الكاهن الموكَّل بعظة الخاطئين والصَّلاة لأجلهم:

والآن ياصموئيل، لماذا تضطرنا يابني إلى تعذيبك، وإحداث هذه الآلام لك، مادمت قادراً على الخلاص من هذا كله، إذا ماقلتَ لنا أين إخوتك؟ وأين زوجك؟

فأجاب الرَّجل : لايمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم، لأنَّي قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم ولا أسلمهم لديوان التَّفتيـش .

فقال الكاهن : ولكننا لانعتقد أنَّهم يرضون لك هذه الحال، وهذا العذاب الأليم .. إنَّ هذا السُكوت لايُعَدُّ أمانة الآن، بل يُعَدُّ جنوناً .. قل قبل أن يبدأ الرِّجال بتعذيبك.

الرَّجل : إنَّني أشكر لكم إذا ماقتلتموني مرَّة واحدة.

الكاهن : دع عنك هذا العناد يارجل، واعلم جيداً أنَّك سوف تموت دون أن يعلموا بأنَّك مت فداء لهم، والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً، وإن آجلاً، فتكون قدْ مُتَّ أنت من غير ما فائدة، ومع هذا فإنَّ زوجك هذه سوف تنساك لامحالة وتتزوَّج سواك، وربما تكون قد خانتك الآن، فصاح الرَّجل قائلاً: صه أيُّها النذل الحقير، واعلم جيداً أن عذابكم لجسدي لايعنيني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الَّذي تلفظه ألسنتكم القذرة السَّامة !. وبكى الرَّجل، وبدؤوا بتعذيبه، فكان صراخه يملأ القاعة، ولكن ليس من منقذ، بيد أن القُسس كانوا وقوفاً يصلُّون، وبأيديهم كتبهم يرتِّلون منها الأناشيد المسيحيَّة.

وبينما هم يعذِّبون المسكين على هذه الصُّورة، سيقت سيِّدة أمام المحكمة، وكانت رابطة الجأش، ذات شجاعة مدهشة، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادَّة، كلُّها الحقد والغضب والانتقام، وسألها قائلاً:

- ما اسمك ياهذه ؟

- سوزانا فرناندس .

وسمع زوجها المعذَّب ذلك، فأنَّ أنيناً طويلاً محزناً، فقد عَرفَ أنَّهم قبضوا على زوجه المسكينة، وأنَّها وقعت بين براثن أولئكَ الوحوش العتاة، أمَّا هي فلم تتمكَّن من معرفة مَنْ يُعَذَّب لِمَا استولى على القاعة من ظلام، ولكنها حينما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن، ولما أخذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتَّقدان شرراً، ومنها ينبعث الشَّرر لالتفاتها، واستمر يسألها قائلاً:

- بنت مَنْ أنتِ ؟ فأجابت : لا أعلم.

- ألا تعلمين من هما أبواكِ ؟ فأجابت : كلا إنَّما رأيت ذات مرَّة رجلاً ماراً بحيٍّ (تريانا)، فقالوا لي: إن هذا أبي.

- أهذا كلٌّ شيء ؟ فأجابت : نعم.

- وأمُّك من تكون ؟ فأجابت : هي أمّي.

- وأين هي ؟ فأجابت : ماتت.

- وأين ماتت ؟ هل سقطت في الوادي الكبير ؟

- كلا، بل قُتِلَت قتل العمد.

- وكيف كان هذا ؟

- إنَّها ماتت جوعاً في سجون ديوان التَّفتيش.

- وأين كانت تسكن قبل أن تسجن ؟

- مع رجل من بقايا العرب، كان يمرُّ ببابنا كلَّ يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد، فسكن، وسأنضم أنا لهما أيضاً.

- وهل مات ذلك الرَّجل ؟

- نعم قد مات في سجون ديوان التَّفتيش .

- أكان مسيحيّاً ؟.

- لا أدري، ومع هذا فَلِمَ تسألونني عن المسيحيَّة كثيراً ؟ ومادخل الدِّيانة المسيحيَّة في ديوان التَّفتيش ؟ ! ! !.

وما كادت السَّيِّدة تُتِمُّ كلامها حتَّى بدأ رجالُ العذاب في تعذيبها تعذيباً مخيفاً تقشعر من ذكره الأبدان.

ومما يذكر ... أنَّ هناك عذاباً اختص به النِّساء، وهو: تعرية المرأة إلاَّ ما ستر عورتها، وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة، ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدُّون وَثاقها، وهي على هذه الحالة السَّيئة، ولا يمكنها الحِرَاك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديديّة، ويرخون شعرها فيجلِّلها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنَّما هي جنِّيَّة ولا سيما إذا ما أرخى اللَّيل سدوله، وتُتْرَكُ المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن، أو تموت جوعاً ورعباً[1].

ويوم احتلال نابليون بونابرت لإسبانية، بعد قيام الثَّورة الفرنسيَّة، أصدر مرسوماً سنة 1808 م بإلغاء محاكم التَّفتيش في إسبانية، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة، استمروا في القتل والتَّعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيِّين فأرسل المريشال (سولت) الحاكمُ العسكريُّ الفرنسي لمدريد، الكولونيل (ليمونكي) مع ألف جندي وأَرَبعة مدافع، وهاجم دير الدِّيوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة، لم يعثروا على شيء،

(1) – محاكم التَّفتيش. ص : 93.

فقرَّر الكونيل (ليمونكي) فحص الأرض، وحين ذلك نظر الرُّهبان إلى بعضهم نظرات قلقة.

أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فَرُفِعَت، ثَمَّ أمر بأن يصبُّوا الماء بكثرة في أرض كلٍّ غرفة على حدة، ففعلوا، فإذا الماء يتسرَّب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أنَّ الباب من هنا، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وُضِعَت إلى جوار رجل مكتب الرَّئيس، وفُتِحَ البابُ بقحوف البنادق، واصفرَّت وجوه الرُّهبان وكستها غبرة، وظهر سُلَّمٌ يؤدِّي إلى باطن الأرض.

ونزل القائد الكولونيل وجندُه، ويذكر هذا الإنسان في مذكِّراته مايلي[1]:

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربَّعة، هي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديديَّة ضخمة رُبِطَت بها سلاسل؛ كانت الفرائس تُقَيَّد بها رهن المحاكمة.

وأمام ذلك العمود عرش (الدَّينونة) كما يسمونه، وهو عبارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس ديوان محكمة التَّفتيش، وإلى جانبه مقاعد أُخرى أقل ارتفاعاً معدّة لجلوس جماعة القضاة.

---

(1) – راجع (التَّعصُّب والتَّسامح بين المسيحيَّة والإسلام) دحض شبهات وردُّ مفتريات، للأستاذ محمَّد الغزالي، ط3، سنة 1965م، ص : 316.

ثُمَّ توجهنا إلى آلات التَّعذيب، وتمزيق الأجسام البشريَّة، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرةً تحت الأرض، وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التَّقَزُّز ماحييت.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها أُفقي ، فيبقى سجين العَمُوديَّة واقفاً بها على رجلية مدَّة سجنه حتَّى يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقيَّة ممَّدداً بها حتَّى يموت، وتبقى الجثَّة في السِّجن الضيِّق حتَّى تبلى، ويتساقط اللَّحم عن العظم، ولتصريف الرَّوائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية، تُفْتَح كُوَّةٌ صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدَّة هياكل بشريَّة، مازالت في أغلالها سجينة.

والسُّجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرَّابعة عشرة والسَّبعين، واستطعنا فكاك بعض السُّجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مالاقى من عذاب، وكان السُّجناء عراة زيادة في النكاية بهم، حتَّى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم، ويستروا بها لفيفاً من النَّساء السَّجينات ..

وانتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا هناك ماتقشعر لهولة الأبدان، عثرنا على آلاتٍ لتكسير العظام، وسحق الجسم.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرّأس المُعَذّب، بعد أن يربط صاحبه بالسّلاسل في يديه ورجليه، فلا يقوى على الحركة، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصّندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كلّ دقيقة نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كلّ دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من ذلك اللّون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذّب على حالة تلك حتّى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثة للتّعذيب تسمّى السّيّدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدّة سكاكين حادّة، وكانوا يطرحون الشّاب المعذّب فوق هذه الصّورة، ثمّ يطبّقون عليه باب التّابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أُغلِق، مُزّق الشّاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لِسَلِّ اللِّسان، ولتمزيق أثداء النِّساء وسحبها من الصُّدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشَّائك لضرب المُعَذَّبين، وهم عراة، حتَّى يتناثر اللَّحم عن العظام .

ولما شاهد النَّاس بأعينهم وسائل التَّعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسٌّ - فأمسكوا برئيس الدَّير ووضعوه في آلة تكسير العظام، فَدُقَّت عظامه دقّاً، وسحقتها سحقاً، وأمسكوا أمين سرِّه، وزفُّوه إلى السَّيِّدة الجميلة، وأطبقوا عليها الأبواب، فمزَّقته السَّكاكين شَرَّ ممزَّق، ثُمَّ أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقيَّة الرُّهبان كذلك.

إن مقارنة بسيطة بين الفتح العربي الإسلامي للبلاد المسيحيَّة، والاحتلال المسيحي للبلاد الإسلامية، تعطي فكرة واضحة جلية عن تسامح المسلمين وحرِّيَّة المعتقد تحت سلطانهم، وتعطي في الوقت ذاته صورة جليَّة لتعصُّب المسيحيِّين والقمع والمجازر والتَّحريق الَّذي رافق انتصاراتهم، سواء في الحروب الصَّليبيَّة في المشرق، أوفي حروبهم الصَّليبيَّة في إسبانية.

فالمسلم لم تجش في نفسه نوايا الغدر والفتك والخيانة، والقتل الجماعي والتَّحريق لغير أبناء دينه، وقد حكم قروناً طويلة، ولم نسمع عنه، ولومرَّة واحدة، بمثل ماجرى في محاكم التَّفتيش.

لقد حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه، وعرَّفته بواجباته الَّتي لاتختلف كثيراً عن واجبات المسلمين، وفي كلِّ الظُّروف عُومِلَ غير المسلم (إنساناً) تُحْتَرم إنسانيَّتُهُ:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

{الحُجُرات : 49 / 13}

وَ «الخلقَ كُلُّهم عيال اللَّه، وأحبُّهم إلى اللَّه انفعُهم لعياله».

ولما صار زمام القوَّة والحكم بيد النصارى الإسبان، استُؤْصِل المسلمون وأُبيدوا وحُرِّقوا وهُجِّروا ... ومع هذا كلهُ يُتَّهم الإسلام بالقسوة والتَّعصُّب، وانتشاره بالسَّيف، ويُوصَفُ المسيحيُّون بالتَّسامح والمحبَّة والكلمة الطَّيبة، فأي ظلم يصيب الإسلام حين يُكْتَبُ تاريخه في أُوربة ؟ ؟ ؟

أَلم نقُل : إنَّ مايفعله المستشرقون بالإِسلام يسمَّى «إِسقاطاً» ألا وهو اتهام الآخرين بمافيهم من سوءٍ ونقصٍ ووحشيَّةٍ وتعصُّبٍ !!

الكشوفُ الجغرافيَّةُ

أقلع يوحنا الأوَّل، ملك البرتغال[1]، بمئتَيْن واثنتَيْن وأربعين سفينة يقودها، من ميناء لشبونه، بهدف تحقيق أوَّل هجوم توسُّعي برتغالي، مع استمرارية حرب المسلمين أينما وُجِدوا، فاتَّجه إلى المغرب، ونحو سبتة بالذَّات لأنها المرسى الذي لايزال تقلع منه قوَّات المدد الَّذي كان المغرب يوجهها لإعانة مسلمي الأندلس أيَّام المرابطين والموحِّدين وبني مرِين[2]

---

(1) – يوحنا الأوَّل Joan 1 أوَّل ملوك البرتغال من أُسرة (أبيس) سنة 1385م ، والَّذي تمَّت في عهده الكشوف الجغرافيَّة الأولى.

(2) – يذكر محمد القاسم بن عبد الملك الأنصاري السبْتي في كتابه: (اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سني الآثار)، ص : 27 –33 : أنَّه كان بسبتة ألف مسجد، وأنَّ عدد الخزائن العلميَّة (المكتبات) بها اثنتان وستُّون خزانة، وأن عدد الروابط الزوايا سبع وأربعون مابين زاوية ورابطة، أمَّا محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرساً، تمتد إلى اثنتي عشر ميلاً من خارجها من ناحية البحر ... وكان بسبتة اثنان وعشرون حماماً، ومئة وأربعة وسبعون سوقاً، أمَّا المنجرات المُعَدَّة لعمل القسيِّ فعددها أربعون مَنْجرة، ولما كانت سبتة ميناء تجارياً يقصده التُّجار الأغراب، فإنَّها احتوت على نيِّف وثلاث مئة فندق لخزن الحبوب، وإيواء المسافرين.

وتّم احتلال سبتة يوم الخميس 21 آب (أغسطس)، هانيبال سنة 1415م ومن ذلك اليوم، لم تعد مغربيَّة عربيَّة إلى يومنا هذا، واحتلال سبتة حادث عظيم خطير[1]، تبعه هجمات برتغاليَّة على كلِّ الشَّواطئ، ومن ثمَّ على الخليج العربي شرقاً.

يقول الضَّابط البرتغالي فاسكو كاربالو[2] Vasco Carbalo:

«وكان شباب البرتغال يتحرَّقون على القتال، ولكن ضدَّ مَنْ؟ أين يجدون العدو؟ إذ إنَّنا من جهة عقدنا الصلح مع قشتالة، ومن جهة أخرى يواجهنا البحر، ولكن بمقتضى تقاليدنا وديننا ومصلحتنا، فإنَّ العدو لايزال هو المسلم. فإذا كان قد التجأ إلى ماوراء البحار، فيجب أن نذهب للبحث عنه، يجب أن نطارد الوحش في ممكنه».

---

(1) - ومما يذكر أن المبشِّر الميورقي رامون لُل Lull قدَّم لمؤتمر ڤيين Vienne بفرنسة في عام 1310م - أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليِّين سبتة- اقتراحاً بتشكيل منظَّمة تضمُّ فرسان النَّصارى كافَّة، وعليها أن تعمل دون انقطاع لاحتلال الأراضي المقدَّسة (فلسطين)، ويكون أوَّل مهامها احتلال سبتة والقسطنطينيَّة لاتخاذهما قاعدتَيْن لشنِّ الهجمات ضدَّ المسلمين، انظر:

Allison Peers, Roman Lull : A Biography, London 1929. P. 351

(2) - (دعوة الحق) عن :

Vesco Carbaio, La Domination Portuguese au Maroc Libonne, 1936.

وكان من نتائج إقامة الجيش البرتغالي على أرض إفريقية، أن تغيَّرت آراء الأسرة الحاكمة في لشبونة تغيُّراً جذريّاً، لم تكن لتخطر على بال، ففي سبتة زُرِعَت أوَّل بذرة لسياسة الاستعمار البرتغالي، الَّتي لم يكن ليحلم بها أحد حتَّى ذلك الحين، والَّتي تفرَّغ لها تماماً هنري (الَّذي لُقِّب بالملاَّح)، وهو ابن الملك يوحنَّا الأوَّل، فاستبدَّت به رغبة مُلِحَّة لاستكشاف مجاهل إفريقية الَّتي يكتنفها الغموض بالنسبة للبرتغاليِّين والأوربيين عموماً، ولم يكن ثمَّة مايحول بينه وبين رغبته، أو يثنيه عن عزمه شيء، خصوصاً وقد سمع في سبتة عن المناجم الغنيَّة بالذَّهب، والَّتي يقال إنَّها توجد في غانة، وما يجنيه التُّجار في جنوبي موريتانية من ربح وغنم وفير.

كما سمع في سبتة أيضاً أن ملك الحبشة يدين بالمسيحيَّة، وأن الحبشة تقع في إفريقية.

وما أن عاد الملك إلى البرتغال حتَّى عيَّن هنري حاكما لسبتة، كما أسند إليه تصريف الشُّؤون الَّتي تتعلَّق بإفريقية، وبعد ذلك بزمن قصير، عيَّنه في منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح، الَّتي تأسَّست سنة 1319م عقب حل جمعية الفرسان

الدّاويّة[1] Templiers، وكان كثيرون من أعضائها قد التجؤوا إلى البرتغال، حيث بسط عليهم الملك حمايته، وكان الفوز بعضويّتها يعد شرفاً عظيماً، أمّا الغاية الّتي كانت تستهدفها فهي مواصلة محاربة المسلمين[2].

بدأت الكشوف البرتغاليّة سنة 1418م، حينما أبحرت السّفن ناشرة أشرعتها، حاملة إلى شعوب إفريقية جماعة من الرّهبان، يبشّرون بالعهد الجديد (الإنجيل)، ويعودون منها بكنوزها من الذّهب والعاج والفلفل ...

ومضى (هنري الملاّح) بتنفيذ مشروع مغامراته البحريّة، لأنّه كان يأمل أن يجد في ملك الحبشة (القس يوحنا) حليفاً له في مقاتلة المسلمين، مع الوقوف على مدى قوّة المسلمين في إفريقية، خصوصاً وقد وهب البابا مارتن الخامس[3] التّاج

---

(1) - الفرسان الهيكليّون Templiers : جمعية عسكرية رهبانيّة، تأسّست في القدس للدفاع عن الأراضي المقدّسة 1118، انتقلت إلى الغرب، حلّها ملك فرنسة فيليب الرّابع سنة 1313م.

(2) - (في طلب التّوابل) سونيا ي. هاو، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، 1957.

(3) - البابا مرتينُس (مارتن) الخامس : [1417 - 1431م]، وهو البابا الخامس بعد المئتيْن.

البرتغالي كلَّ الممالك الَّتي يستكشفها، «ثُمَّ أمعن البابا في الكرم والسَّخاء، فأحلَّ من الأوزار والخطايا أرواحَ من يلقون حتفهم في تلك المغامرات من أعوانه وأجناده[1]»، معطياً الكشوف طابع الحروب الصَّليبيَّة الصَّريح.

أمَّا المغانم المادِّيَّة - كالذَّهب وتجارة الرَّقيق - فقد كانت كبيرة جدّاً، وكانت أوَّل شحنة كبيرة من الرَّقيق سنة 1444م، قوامها 253 رقيقاً، و «القلب يتفطَّر من الخزي للمناظر البشعة الَّتي تُمثَّل على مسرح الألم والحسرة، من تمزيق شمل الأسرة، وفصل أفرادها الواحد عن الآخر، يُكتب في تفجُّع بقلم الواقف على أسرار النَّفس البشريَّة، وما يختلج فيها من شعور الكمد، وهو لم يزل في طور طفولة الزَّمن، ولكنه يسرح النَّظر فيما وراء العذاب الوقتي إلى الخلاص الأبدي الَّذي أصبح لأولئك الَّذين سماهم (بأبناء آدم السُّود)[2]».

وتابع البرتغاليُّون كشوفاتهم بعد موت هنري الملاَّح سنة 1463م.

---

(1) - في طلب التَّوابل، ص : 106.

(2) - المرجع السَّابق، ص : 104، ومما يذكر أن ملكة بريطانية (أليزابيت الأولى : 1558 - 1603 م) كانت شريكة (لجون هوكنز) أعظم نخَّاس في التَّاريخ، وقد رفعته إلى مرتبة النُّبلاء، إعجاباً ببطولته.

وقرَّر الملك مانويل الأوَّل [1495 - 1521م]، القضاء على سيطرة الدُّول العربيَّة عن طريق احتلال عدن ومضيق هرمز، فسيَّر فاسكو دوغاما سنة 1497م، بعد أن قال في وداعه: «هذه المغامرة النَّبيلة، والمنافع الَّتي تُرجى من ورائها مرضاة اللَّه، فما هي إلاَّ أن تفتح الهند، حتَّى تبلُّغ رسالة سيدنا وإلهنا يسوع إلى أولئك الَّذين لايعلمون عنه شيئاً»، على أن تبليغ الرِّسالة المسيحيَّة - وإن كان الهدف الأوَّل للملك مانويل - إلاَّ أن ذلك لم يمنعه من توصية قوَّاده بضرورة البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشَّرق، وشرح الملك بمنتهى الوضوح كيف أنَّ الجمهوريات الإيطاليَّة إنَّما تدين بعظمتها وغناها لتجارة التَّوابل.

وما أن فرغ الملك من خطابه، حتى تقدَّم أحد كبار رجال الحاشية وهو يحمل لواء جماعة المسيح، فسلَّمه إلى فاسكو دوغاما، الَّذي تناوله ولفَّه حول ذراعه، ثمَّ نطق بهذا القسم: «أنا فاسكو دوغاما المكلَّف من مليكي باكتشاف بِحَار الشَّرق، وبلاد الهند الشَّرقيَّة، أُقسم برمز هذا الصَّليب الَّذي أضع يدي عليه، بأن أرفعه عالياً مطويّاً أومنشوراً في سبيل خدمة اللَّه وخدمتكم أينما حللت، سواء في بلاد المغرب، أو في بلاد الشُّعوب الأخرى من أي جنس ولون، وأقسم أنني سأدافع عنه حتَّى الموت،

لاتمنعني عن ذلك الأخطار، مهما يكن مبلغها، وأينما كانت في البحر أو البر، ومهما أصلى بنار الحروب، وإنني سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إليّ، وأطيع التعليمات في جميع الظروف[1]».

وتسلم دوغاما من مليكه رسالة موجهة إلى (القس يوحنا) ملك الحبشة، وقضى وبحارته طوال الليل يصلون لله ويضرعون إليه في كنيسة بناها الأمير هنري الملاح للبحارة خاصة، ورتل رئيس القسس (قداس الاعتراف العام)، ثمّ نطق بالمغفرة وفقاً للعهد الذي قطعه البابا على نفسه للأمير هنري الملاح، بأن يمنحها كلّ أولئك الذين هلكوا أو قتلوا في الفتوح، أو في الكشف عن البلاد النائية السحيقة، وأن يعدوا من الوجهة الروحية كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصليبية، وأن يمنحوا مثل مامنحوا من الغفران.

---

(1) – في طلب التوابل، ص : 180، وجاء في (تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين)، ص 246 : قال عمانويل الأول: «إنّ الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية، والحصول على ثروات الشرق».

ولقد ظهرت قسوة البرتغاليِّين ووحشيتهم وتعصبهم منذ أوَّل يوم نزلوا فيه أَراضي إِفويقية وآسية، لقد أَحرق دوغاما مركباً للحجاج يحمل مئات الرِّجال والنِّساء والأطفالِ، دون أَنْ يستجيب إِلى توسُّل النِّساء إِليه، وفي أَحد المراكز الهنديَّة أَسر حوالي ثمان مئة بحَّار هندي، وشنقهم على ظهر سفينة، وقطع أَيديهم ورؤوسهم، ثمَّ دفع جثثهم في مركب حمله التيَّار إِلى الشَّاطئ ليراها ذووهم .

وبعد عودة دوغاما بستة أَشهر، أَرسل الملك أُسطولاً مكوَّناً من ثلاث عشرة قطعة إِلى الهند بقيادة بدرو ألفارز كابرال Pedro Alvares Cabral، عليها أَلف وخمس مئة جندي، عدا البحارة، ومهرة العمال، وسبعة عشر قسِّيساً، وكان على كابرال أَن يبدأ بالدَّعوة إِلى المسيحيَّة، فإن لم تأت الدَّعوة بالنَّتيجة المنشودة : «فليحتكم إِلى السَّيف[1]».

وفي سنة 1506م أَرسل الملك مانويل (أَلفونسو أَلبوكيرك: Albuquerque) إِلى الشَّرق، فدخل مضيق باب المندب، ووصل مصوَّع وسواكن وجدة والسُّويس، ثمَّ وصل إِلي شواطئ عُمان، ومضيق هرمز، ولما استولى أَلبوكيرك على ملقًا، في جنوب شرقي آسية، وعلم الملك مانويل نبأ الاستيلاء عليها، أوفد من

(1) – في طلب التَّوابل، ص : 208.

من فوره رسولاً إلى البابا، ليفضي إليه بالنّبأ السّعيد، بأن «القرن الذّهبي قد أصبح الآن ملْكاً للبرتغال»، وأقام البابا ليو العاشر[1] بمناسبة «هذا الانتصار العظيم» انتصار ملك مسيحي على (الكُفّار) والوثنيّين قُدّاساً خاصاً للشُّكر، وأمر بتسيير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه[2].

وفي (غُوَا)[3]، قابل ألبوكيرك سفيراً من قبل الملكة الوصيّة على عرش الحبشة، كان قد وفد على الهند بغية السّفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السُّفن البرتغاليّة العائدة إلى موطنها، وكان هذا المبعوث يحمل خطاباً تقترح فيه الملكة التّزاوجَ بين أبناء الأسرتَيْن المالكتَيْن، وعرضاً رسمياً من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليّين في كسر شوكة السُّلطان في القاهرة[4]، وتحطيم مدينة مكّة.

---

(1) – البابا ليو (ليون) العاشر، البابا السّادس عشر بعد المئتين : [1513 - 1521 م].

(2) – في طلب التّوابل، ص : 222.

(3) –غُوَا Goa : مدينة في جنوب غربي الهند، بقيت تابعة للبرتغال حتّى سنة 1961م.

(4) – كان المماليك يحكمون قلب الوطن العربي في هذه الآونة، وكانت القاهرة عاصمتهم، وسلطانهم قانصوه الغوري.

راق كلُّ هذا لألبوكيرك، لأنَّه يتمشَّى مع خطَّته، إذ كانت تلتهب في رأسه فكرة المسير السَّريع إلى المدينة لاختطاف رفات النَّبيِّ الكريم صلى اللَّه عليه وسلَّم، ثمَّ عرضها على المسلمين بعد ذلك مقابل التَّخلِّي عن فلسطين [1]، وهذا يثبت الرُّوح الصَّليبيَّة الأوربيَّة الحاقدة، الَّتي توَّجت الكشوف الجغرافيَّة.

وكان من بين الخطط الَّتي اعتزمها ألبوكيرك، تحويل نهر النّيل عن مجراه، كي تحرم مصر من خصوبة أرضها[2] فيتم هلاكها، وعبَّر الأحباش عن استعدادهم ورغبتهم الصَّارمة في القيام بهذا إلعمل، ولكن كانت تنقصهم الوسائل لتنفيذه، فطلب ألبوكيرك من الملك مانويل أن يرسل إلى الحبشة صُنَّاعاً من جزر آزور[3]، لمهارتهم في القيام بمثل هذا العمل، إذ كان عليهم أن يفتحوا ثغرة بين سلسلة التلال الصَّغيرة، الَّتي تجري بجانب النِّيل داخل الحبشة، فأرسل الملكُ البرتغاليُّ: «دون رودريجو دي ليما Rodrigo de Lima سفيراً إلى الحبشة، فوصل عاصمتها أكسوم سنة 1520م، ولكن ألبوكيرك توفِّي قبل ذلك (سنة1515م)

---

(1) - في طلب التَّوابل، ص : 225.

(2) - لأنَّ معظم كميَّات الطَّمي (الغرين) الَّتي يحملها النِّيل، قادمة من النيل الأزرق القادم من الحبشة.

(3) - جزر في المحيط الأطلسي (برتغاليَّة).

دون أن يَضع الخطط - الَّتي كان قد اعتزمها بشأن مصر - موضع التَّنفيذ.

ولما وصل سبستيان[1] إلى عرش الامبراطوريَّة البرتغاليَّة، أراد أن يعلي شأنه بين ملوك أوربة، فظهر يحمل في يمناه كتابه المقدَّس، وفي يسراه التَّاج والصَّولجان، ليتوج نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقية، وإنَّه حلم امتلاك الدُّنيا بعد الكشوف الجغرافيَّة، واحتلال كل أراضي الإسلام، والقضاء عليه أينما وُجِـــدَ .

فالملك الشَّاب سبستيان كان يملك من الحماس والحقد على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، ماتكاد تنفجر به جوارحه، وبدافع حقد وتعصُّب صليبي من جهة، وبدافع من العقليَّة الاستعماريَّة، الَّتي ترى أن يدها مطلقة، في كلِّ أرض عربيَّة مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، خطط لغزو واحتلال المغرب[2] .

---

(1) - تربَّع سبستيان على عرش الامبراطورية البرتغالية سنة 1557م.

(2) - دعوة الحق، مقالة الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن، ص104، للأستاذ عبد القادر العافية

فحشد سبستيان اثني عشر ألفاً من البرتغال.

وأمَّده خاله فيليب الثاني ملك إسبانية بعشرين ألفاً من عسكر الإسبان.

كما أرسل إليه الطُّليان ثلاثة آلاف، ومثلها من الألمان، وغيرهم عدداً كثيراً.

وبعث إليه صاحب رومة[1]، بأربعة آلاف أخرى، وبألف وخمس مئة من الخيل، واثني عشر مدفعاً، وجمع سبستيان نحو ألف مركب ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربيَّة.

وفي معركة وادي المخازن (أو معركة الملوك الثَّلاثة، أو معركة القصر الكبير[2])، في 4 أب، أغسطس (هانيبال) 1578م، صُرع سبستيان، وألوف من حوله، وانتصر الأشراف السَّعديون بقيادة عبد الملك المعتصم بالله، بعد معركة دامت أربع ساعات وثلث السَّاعة، ولم يكن النَّصر فيها مصادفة، بل كان بسبب معنويَّات عالية، ونفوس مؤمنة شعرت بالمسؤوليَّة، وخطَّة مدروسة مقَّررة محكمة، فما هي إلاَّ (260) دقيقة فقط، ومصير المغرب الأقصى يتقرَّر إلى الأبد عربيّاً مسلماً.

---

(1) - البابا غريغوريوس الثَّالث عشر: [1572 - 1585م]

(2) - انظر معركة (وادي المخازن) ص : 47، نشر دار الفكر بدمشق.

إنَّها كشوف جغرافيَّة أوربيَّة، وما هي في حقيقتها إلا امتداد للحروب الصَّليبيَّة، وفي جوهرها حركة تبشيريَّة، واستمرار لمحاكم التَّفتيش، لذلك اتَّصفت بضخامة الحشد، واتَّسمت بدقَّة التَّنظيم والإعداد، لغزو الإسلام في أي بقعة من بقاع الأرض.

وهذه شهادة منصفة من مبَّشر في إفريقية ذكرها في كتابه: «الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة»، وصاحب الكتاب هو المبشِّر : «ليندن هاديس»، فقد قرَّر المؤلّف بعد النَّظر إلى الفارق الكبير بين أثر العرب المسلمين، وأثر الأوربيِّين في إفريقية الشَّماليَّة، أنَّ البرتغاليِّين قضوا فيها نحو مئتي سنة، لم يتركوا بعدها أثراً من آثار الحضارة النَّافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الَّذي حلَّ على أيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلاميَّة، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرِّبون وينهبون، أمَّا العرب الَّذين انتقلوا إلى السَّواحل، فإنَّهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة.

وليس ماحدث من الدَّمار حلَّ في إفريقية فحسب، بل حلَّ في كلِّ بقعة وصلها المبشِّرون الصَّليبيُّون المستعمرون.

ماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأصلي (الهنود الحمر) ؟

الجواب وبكل بساطة : إبادة كاملة.

وماذا فعلت فرنسة في الجزائر مثلاً ؟

الجواب : مليون شهيد وأكثر، مع اتِّباع سياسة الأرض المحروقة على يد (بوجو).

وماذا فعلت إنكلترة في أُستراليه ؟

الجواب : إبادة واستعمار استيطاني، وفي إفريقية تمييز عنصري[1].

وماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكان أمريكة الجنوبية؟

الجواب : انتهاء حضارة الأنكا والمايا والآزتيك، وإبادة كاملة، مع سفن أسبوعية في قوافل منتظمة مستمرة لنقل الذَهب والفضة إلى إسبانية والبرتغال.

---

(1) - ومن المفارقات الطّريفة، أن السّفينة الّتي أعدّتها الملكة أليزابيت الأولى لشريكها في تجارة الرقيق (جون هوكنز) كانت تسمّى (يسوع) !! وكان عدد السُّفن المخصّصة للاتّجار بالرقيق 192 سفينة، تتّسع حمولتها في الرّحلة الواحدة 47.146 رقيقاً، وطلبت من رجال الدّين مبرّراً لهذه التّجارة، فأسعفوها بنصوص التوراة التي تحل الرّق، [حقوق الإنسان، ص : 127].

وكان النَّشيد الَّذي ردَّده الغزاة الإِيطاليون، وهم في طريقهم لغزو ليبيا سنة 1911م :

«يا أُمّاه أتمِّي صلاتك ولا تبكِ، بل اضحكي وتأمَّلي، ألا تعلمين أنَّ إيطالية تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرِحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة، ولأحارب الديانة الإِسلامية، سأُقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، وإن لم أَرجع فلا تَبْكِ على ولدك، وإن سألك أخي عن عدم حزنك عليَّ فأجيبيه إنَّه مات في محاربة الإسلام».

أين هذا، مما نجده في القرآن الكريم:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً .. ﴾ ،

(آل عمران 3 / 64)

ولم تعرف المسيحيَّة التَّسامح حتَّى بين أتباعها إن اختلف المذهب، ولن نتحدَّث مطوَّلاً عن الحروب الَّتي نشبت في أُوربة إبَّان الإِصلاح الدِّيني، ونكتفي بمثال واحد فقط:

مَلْحَمَةُ سان بارتلمي :

ملحمة سان بارتلمي مذبحة أمر بها سنة 1572م شارل التَّاسع، وكاترينا دوميديسيس، حينما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس، ظنَّت أنَّهم يأتمرون بها وبالملك،

ولم يكد ينتشر الخبر في باريس حتَّى شاع أنَّه شُرِعَ في قتل الخوارج[1]، فانقض أشراف الكاثوليك والحرس الملوكي والنَّبالة والجمهور على البروتستانت، وقتلوا منهم ألْفَي نسمة، وقد قلَّد سكان الولايات الفرنسيَّة بعامل العدوى أهل باريس، فسفكوا دماء ست إلى ثماني آلاف نسمة.

ولم تنل حادثة السَّان بارتلمي أيَّام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أُوربَّة الكاثوليكيَّة، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف، فكاد فيليب الثَّاني يصبح مجنوناً لشدَّة فرحه يوم بلغه وقوعها، وانهالت التَّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لو نال نصراً عظيماً في ساحة الوغى.

وما بدا السُّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثَّالث عشر، فقد أمر بضرب أوسمة خاصَّة تخليداً لذكراها، رُسِمَت على هذه الأوسمة صورةُ غريغوار الثَّالث عشر، وبجانبه ملكٌ يضرب بالسَّيف أعناق الخوارج، ثمَّ هذه العبارة:

«قُتِلِ الخوارج»، كما أمر بإيقاد نيران الفرح، وبضرب المدافع، وبتكليف الرَّسام فازاري أن يصوِّر على جدران الفاتيكان مناظرها[2].

---

(1) – الخوارج هنا يعني البروتستانت الَّذين خرجوا عن سلطة بابا رومة الكاثوليكي.

(2) – روح الثَّورات، غوستاف لوبون، ص 14

لم نذكر في انتشار الشَّرائع شيئاً عن موقف اليهوديَّة ونظرتها إلى التَّسامح، لأنَّنا لانستطيع إيرادها، أو التَّحدُّث عنها بشيء تحت هذا العنوان السَّمح الجميل، والإنساني الأصيل. ونكتفي ببعض النُّصوص التَّوراتيَّة كما جاءت في سفر التَّثنية ويَشُوع، حيث يقرِّر مايجب فعله في مدينة غزاها اليهود واحتلُّوها:

«فضرباً تَضْرِبُ سكَّانَ تلكَ المدينة بحدِّ السَّيف وتحرِّمُها بكلِّ مافيها مع بهائمها بحدِّ السَّيف، تَجْمعُ كُلَّ أمتعتها إلى وَسطِ ساحتها وتَحْرِقُ بالنَّار المدينةَ وكلَّ أمتعتها كاملةً للرَّبِّ إلهكَ فتكون تلاً إلى الأبد لاتُبنى بعده[1]».

«حين تقربُ من مدينة لكي تحاربَها استدعها إلى الصُّلح، فإن أجابتك إلى الصُّلح وفتحت لك، فكلُّ الشَّعب الموجود فيها يكون لك للتَّسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرَّبُّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السَّيف، وأمَّا النَّساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في

(1) - سفر التثنية 13 / 15 و17.

المدينة كلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكُلُ غنيمةَ أعدائك الَّتي أعطاك الرَّبُّ إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً جداً الَّتي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأمَّا مدن هؤلاء الشُّعوب الَّتي يعطيك الرَّبُّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة، بل تحرِّمها تحريماً[1] ...».

وفي سفر يَشُوع تتكرَّر عبارة:

«واضربوها بحد السَّيف[2]»،

ونكتفي بنصٍّ واحد من السفر المذكور:

«... وكلُّ غنيمة تلك المدن والبهائم نَهَبَهَا بنو إسرائيل لأنفسهم، وأمَّا الرِّجال فَضَرَبُوهُم جميعاً بحدِّ السَّيف حتَّى أبادُوهم[3] ...».

---

(1) - سفر التثنية 20 / 10 - 17.

(2) - يشوع : 6 /21، وَ8 / 28 ، و10 / 28 و 30 و 35 و 37 و 38، و11/11 وَ12.

(3) - يشوع : 11 / 14 و 15.

أمَّا العجائب الَّتي جاءت في التلمود، فمنها:

«إنَّ الإسرائيلي يعتبر عند اللَّه أكثر من الملائكة، فإن ضرب أمِّيٌّ[1] إسرائيلياً، فكأنَّه ضرب العزة الإلهيَّة[2]».

«إنَّ الكلب أفضل من الأجانب، لأنَّه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطْعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرَّح له أيضاً أن يعطيهم لحماً، بل يعطيه للكلب لأنَّه أفضل منهم[3]».

«قارن هذا اللُّؤم والحقد على سائر البشر بقول رسول الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام:

«في كلِّ كبد رطبة أجر».

---

(1) – الأمِّي: يريدون به من ليس يهودياً.

(2) – الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص : 72، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله، دار القلم، ط1، 1987.

(3) – المرجع السَّابق، ص 74.

أي في كلِّ ماتطعمه جائعاً ذا كبد رطبة ثواب لك من اللَّه تعالى دون تمييز بين مسلم وغير مسلم لأنه عمل إنساني[1]».

وأخيراً ... كيف نتكلَّم عن التَّسامح عند اليهوديَّة وأصحابها «شعب اللَّه المختار»، والنَّاس كلُّهم دونهم، مسخَّرون لهم ؟ ! ؟ .

** **

**

(6) – تعليق الأستاذ مصطفى الزرقا في المرجع السَّابق، ص : 74.

شهاداتٌ منصفةٌ

* يقول (فانَسان مونتيه)، أستاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإِسلامي بجامعة باريس[1] :

«اخترت الإِسلام لأنَّه دين الفطرة، اخترته ديناً ألقى به وجه ربِّي، كنت في (سان سير) ووقع بين يدي لأوَّل مرَّة في حياتي ترجمة لمعاني القرآن، قام بها (أندريه دورير Andre Durirr) سنة 1947، فاطَّلعت على رأي الإِسلام بمسألة السَّيد المسيح، وعرفت أنَّه بشر أُوحي إِليه، ومن أسباب إِسلامي تسامح الإِسلام تجاه أبناء الأديان الأُخرى، وعلى العكس كما يقول سوليناك Soliynac . (داء الجهاد العصبي المسيحي)».

(1) – ثم أصبح رئيس مؤسَّسة الدِّراسات الإسلامية في مدينة داكار، وهو مؤلِّف كتاب : (الإِرهاب الصُّهيوني)، وكتاب (الإِسلام في إِفريقية السَّوداء)، وكتاب (مفاتيح الفكر العربي).

* لوي ماسنيون[1] كان يسمِّي الإِسلام على الصَّعيد الاجتماعي: «حكومة المساواة الإِلهيَّة» أو «الثيوقراطيَّة المحبِّة للمســاواة».

* المستشرق الألماني أُولرش هيرمان:

«الَّذي لفت نظري أثناء دراستي لهذه الفترة - فترة العصور الوسطى -هو درجة التَّسامح الَّتي تمتَّع بها المسلمون، وأخصُّ هنا صلاح الدِّين الأيوبي، فقد كان متسامحاً جداً تجاه المسيحيين، بل كان أكثر تسامحاً من المسيحيين.

إنَّ المسيحيَّة لم تمارس نفس الموقف تجاه الإِسلام.

الإِسلام دين جذَّاب جدّاً، وهذا يعود ربما إِلى وضوح الرِّسالة الإِسلامية، ولأسباب لا أعرفها، وإِذا نظرنا إِلى إِفريقية، حيث تقوم الجماعات الإِسلاميَّة والمسيحيَّة كل على حدة طبعاً بمحاولات تستهدف تخليص الشُّعوب الإفريقية من الوثنية، نجد الغلبة والنَّصر للإسلام، وهذا كما أَسلفت قد يكون سببه وضوح الرِّسالة الإِسلاميَّة، وكذلك جاذبيَّة الرسالة الأخلاقيَّة الإِسلاميَّة[2]».

---

(1) - Massignon : [1883 - 1962] مستشرق فرنسي، اهتم بنشر مؤلَّفات الحلاَّج.

(2) - (العالم) العدد 290، السَّبت 2 أيلول (سبتمبر) 1989.

* روبرتسون : «إنَّ أتباع محمَّد – صلى الله عليه وسلَّم- هم الأمَّة الوحيدة الَّتي جمعت بين التَّحمُّس في الدِّين والتَّسامح فيه، أي أنَّها مع تمسُّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله[1]».

* أمَّا غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» فيقول:

«وكان محمَّد كثير المسامحة لليهود والنَّصارى خلافاً لما يظن»، [ص : 155].

«وساعد وضوح الإسلام وما أمَرَ به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم، وبتلك المزايا نفسِّر سبب اعتناق كثير من الشُّعوب النَّصرانيَّة للإسلام، كالمصريين الَّذين كانوا نصارى أيَّام حكم قياصرة القسطنطينيَّة، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أُصول الإسلام، كما نُفسِّر به السَّبب في عدم تنصُّر آية أُمَّة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء أكانت هذه الأمَّة غالبة أمْ مغلوبة»، [ص : 159].

«إنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلامَ، واتَّخذوا العربيَّة لغةً لهم، فذلك لما

(1) – حاضر العالم الإسلامي، ص : 1 / 104.

رَأَوْه من عَدْل العرب الغالبين مما لم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابقين، ولما كان عليه الإِسلام من السُّهولة الَّتي لم يعرفوها من قبل .

والتَّاريخ أثبت أنَّ الأديان لا تُفْرَض بالقوَّة، فلما قهر النَّصارى عرب الأندلس، فضَّل هؤلاء القتلَ والطَّرد عن آخرهم على ترك الإِسلام.

ولم ينتشر الإِسلام بالسَّيف، بل انتشر بالدَّعوة وحدَها، وبالدَّعوة وحدها اعتنقت الإِسلامَ الشُّعوب»، [ص : 162].

«إِن مسامحة محمَّد لليهود والنَّصارى كانت عظيمة إِلى الغاية، مما لم يقم بمثله مؤسِّسو الأديان الَّتي ظهرت قبله كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة على الخصوص، وقد اعترف بذلك التَّسامح بعض علماء أُوربة المنصفون القليلون الَّذين أمعنوا النَّظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية الَّتي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم، تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا، قال روبرتسون في كتابه «تاريخ شارلكن» :

«إِن المسلمين مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التَّمسُّك بتعاليمهم الدِّينيَّة[1]».

---

(1) – أوردنا النَّص قبل صفحة كما ورد في [حاضر العالم الإِسلامي: 104/1].

وقال ميشود في كتابه «تاريخ الحروب الصَّليبيَّة» :

إنّ الإسلام الَّذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى، فقد أعفى البطاركة والرُّهبان وخدمهم من الضَّرائب، وحرَّم محمد قتل الرُّهبان على الخصوص، لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النَّصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصَّليبيُّون المسلمين بلا رحمة وقتما دخلوها .

وقال الرَّاهب ميشو في كتابه «رحلة دينيَّة في الشَّرق»:

ومن المؤسف ألاَّ تقتبس الشُّعوب النَّصرانيَّة من المسلمين التَّسامح الَّذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوَّة»، [ص : 162]

«وكان سلوك الصَّليبيِّين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطَّاب نحو النَّصارى وقتما دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لوري (ريمون داجيل) :

حدث ماهو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطِعَت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقلُّ مايمكن أن يصيبهم، وبُقِرَت بطون بعضهم فكانوا يضطرُّون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحُرِّق بعضهم في النَّار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لايُرَى في شوارع القدس

وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يَمُرُّ المرء إلاَّ على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض مانالوه.

وروى ذلك الكاهنُ الحليم،خبرَ ذبحِ عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، فقال:

«لقد أفرط قومنا في سفك الدِّماء» [ص : 401].

«ويمكن القول بأنَّ التَّسامح الدِّينيَّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب»، [ص : 681]:

«لم يفكرِّ النَّصارى بعد أن استردُّوا غَرْناطة الَّتي كانت معقل الإِسلام الأخير في أُوربة، في السَّير على سُنَّة العرب في التَّسامح الَّذي رأوه منهم عِدَّة قرون، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرَّغم من العهود»، [ص : 694].

«كان يمكن أن يُعْمي فتوحُ العرب الأُولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم مايقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الَّذي كانوا يرغبون نشره في العالم، فلو فعلوا ذلك لتألَّبت عليهم جميع الأمم الَّتي كانت بعد، غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثلُ ماأصاب الصَّليبيِّين يوم دخلوا بلاد سوريَّة مؤخَّراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك

الخلفاء السابقون الّذين كان عندهم من العبقريّة ماندَر وجوده في دُعاة الديانات الجديدة، أنّ النُّظم والأديان ليست مما يُفْرض قسراً، فعاملوا أهل سوريّة ومصر وإسبانية، وكل قطر استولَوْا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحقُّ أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولادينًا سمحاً مثل دينهم.

وماجَهِلَه المؤرِّخون من رحمة العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السَّريعة في اتِّساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم الّتي رَسَخَت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتّى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم»، [ص : 719 وَ 720].

صدق غوستاف لوبون وأنصف حين قال:

«فالحقُّ أنَّ الأممَ لم تعرِف فاتحينَ راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينا سَمْحا مثل دينهم».

يقول سبحانه وتعالى في محكم التَّنزيل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئون وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَاليومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

{المائدة : 5 / 69}.

﴿ وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيكُم وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُم عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَاب ».

{آل عمران . 3 / 199}

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُر بالطَّاغُوتِ وَيُؤمن باللَّهِ فَقَد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انفصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 2 / 256]

عود على بدء

«رمتني بدائها وانسلت»

العالم المتمدّن مهيأ للاسلام ديناً ينقذه من ماديّته وفراغه الرُّوحي، فتشويه صورته من قبل الاستشراق - والكنيسة - هدف لصرفهم عن الدينّ الحقّ، فتراهم يضعون أمام الإِسلام مرآة مقعّرة أو محدّبة، فملكة الجمال قُبَالة هذا الوضع تظهر مشوّهة يُزْهَدُ بها.

إنّهم يرون خيول الاسلام مسرجة، ترتعد فرائصهم من فرسانها وهماً وخيالاً، ففي ظلّ تعاليم الاسلام السّمحة، يأخذ الإنسان بيد أخيه الإِنسان، إن كان جائعاً أطعمه، وإن كان فقيراً أغناه، وإن كان جاهلاً علّمه، وإن كان ضالاً هداه ..

أما قام رسول الله صلى اللّه عليه وسلم لجنازةٍ مرَّت أمامه، فقيل له: إنَّهُ غير مسلم، فقال صلى اللّه عليه وسلم :

«أوَ لَيْس إنساناً»؟، [البخاري في الجنائز: 1312]، ويتَّهم الإِسلام بالتَّعصُّب، وتوصف أُوربة بالتَّسامح؟ ويفتري فيكتور هوغو على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وَ(العهدة العمريَّة) كافية لتلقيم هوغو حجراً، ولكن صدق المثل العربي القائل:

«رمتني بدائها وانسلَّت»

إنَّهُ «الاسْقَاطُ» أولاً وأخيراً.

المصادر والمراجع

الأحكام السُّلطانيَّة:

محمد بن الحسين الفرَّاء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، طبعة سنة 1983.

اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سني الآثار:

محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السَّبتي الرَّباط 1983.

أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي:

د. صابر طعيمة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1984.

الأعلام :

خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت. الطبعة السَّادسة، 1984.

الإنسان بين المادِّية والإسلام:

محمد قطب، طبعة عيسي البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الثالثة، 1960.

تاريخ الإسلام:

د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النّهضة المصريّة، الطبعة السّادسة، 1961.

تاريخ أوربة في العصور الوسطى:

هـ . ا . ل . فيشر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، (بلا تاريخ).

تاريخ الشّعوب الإسلاميّة:

كارل بروكلمان، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة الرّابعة، 1965.

تاريخ الطبري (تاريخ الرّسل والملوك):

ابن جرير الطّبري، دار المعارف بمصر، (ذخائر العرب) 1960.

تاريخ العرب العام:

لويس إميلي سيديو، طبعة عيس البابي الحلبي، الطبعة الثّانيّة، 1969.

تاريخ اليعقوبي:

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، دار صادر (بلا طبعة أو تاريخ).

التّبشير والاستعمار:

د.خالدي، ود.فروخ، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1986.

تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين:

أحمد زين الدينْ المعبري المليباري، مؤسَّسة الوفاء، بيروت 1985.

التّسامح والتّعصُّب:

محمَّد الغزالي، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة الثّالثة، 1965.

التفسير الحديث:

محمَّد عـزَّة دروزة، طبعة عيسى البابـي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطَّبعة الأُولى 1963.

حاضر العالم الإسلامي:

لوثروب ستودارد، دار الفكر- بيروت، الطَّبعة الرَّابعة، 1973.

الحركة الصّليبيَّة:

د.سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، الطَّبعة الأولى 1963.

حضارة العرب:

غوستاف لوبون، دار إحياء التراث العربي الطّبعة الثّالثة، 1979.

الخراج:

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (القاضي)، الطّبعة السّلفيّة ومكتبتها، القاهرة، الطّبعة الرّابعة 1392.

الدّعوة إلى الإسلام:

توماس آرنولد، مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الثّانية، 1957.

دعوة الحق:

السّنة 19، العدد الصادر في آب (أغسطس)، هانيبال 1958، الرّباط، وزارة الأوقاف.

دفاع عن الإسلام:

لورافيشيا فاغليري، دار العلم للملايين، بيروت 1975.

السّيرة النبويّة:

ابن هشام، دار الجيل، بيروت 1975.

شمس العرب تسطع على الغرب:

زيغريد هونكه، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الثّامنة. 1986.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا:

أبو العباس القلقشندي، المؤسّسة المصرية العامّة، (تراثنا)، بلاطبعة أو تاريخ).

الصّراع الحضاري:

شايف عكاشة دار الفكر بدمشق، الطّبعة الأولى، 1986.

صليبيّة إلى الأبد:

عبد الفتاح عبد المقصود، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة 1975.

عيون الأثر:

ابن سيّد النّاس، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الثّانية 1974.

الغارة على العالم الاسلامي:

ا. لُوشاتلّيه، طبعة المطبعة السّلفية ومكتبها، القاهرة 1350.

الغزو الثقافي يمتد في فراغنا:

محمد الغزالي، دار الشرق، الطبعة الأولى مصر 1959.

فتوح البلدان:

أبو الحسن البلاذري، المكتبة التّجاريّة الكبرى، مصر، 1957.

في طلب التّوابل:

سونيا ي. هاو، مشروع1000 كتاب، رقم 98. مكتبة النهضة مصر ومطبعتها 1957.

قذائف الحق:

محمد الغزالي ، دار ذات السّلاسل «الكويت» الطبعة الرّابعة، 1980.

الكامل في التّاريخ:

ابن الأثير الجزري، إدارة الطّباعة المنيريّة، القاهرة، 1348.

الكنز المرصود في قواعد التلمود:

ترجمة د. يوسف نصر الله، دار العلم، الطّبعة الأولى، 1987.

لسان العرب:

محمد بن مكرم منظور، دار صادر، بيروت. «بلا تاريخ أو طبعة».

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين:

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي، مكتبة دار العروبة، الطَّبعة الخامسة، 1964.

محاضرات في النَّصرانيَّة:

محمَّد أبو زهرة، دار الكتاب العربي، مصر، الطَّبعة الثالثة، 1961.

المدخل إلى تاريخ الحضارة:

د. جورج حداد، مطبعة الجامعة السُّوريَّة 1958.

مسند الإمام أحمد بن حنبل:

المكتب الاسلامي، دار صادر، بيروت (بلا تاريخ).

مصرع غَرْناطة:

شوقي أبو خليل، دار الفكر بدمشق، الطَّبعة الثَّانية، 1981.

معجم البلدان:

ياقوت الحَمَوي، دار صادر، بيروت (بلا طبعة أو تاريخ).

نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب:

أحمد بن محمّد المقّري التلمساني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949.

وادي المخازن:

شوقي أبو خليل، دار الفكر بدمشق، الطّبعة الأولى، 1988.

ودخلت الخيل الأزهر:

جلال الكشك، الهيئة العامة للكتاب، الطّبعة الثّانية (بدون تاريخ).

المُحتوى

الصفحة